إلهة الشدائد

تأليف
ياسمينا خضرا

رواية

ترجمة
نرمين العمري

دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

إلـهَة

الشَدائِد

إِلـهَة الشَدائِد

تأليف

ياسْمينا خضرَا

روايَة

ترجمة

نرمين العمري

دار الكتاب العربي
بيروت – لبنان

إلهة الشدائد

حقوق الطبعة العربية © 2011

ISBN: 978- 9953- 27- 939- 8

Authorized Translation from the French Language Edition:

Copyright © Èditions Julliard, Paris, 2010

جميع الحقوق محفوظة لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزال مادته بطريقة

الاسترجاع، أو نقله على أي نحو، وبأي طريقة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو

بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلاَّ بموافقة المؤلف على ذلك كتابة ومقدماً.

الناشر

DAR AL KITAB AL ARABI

دار الكتاب العربي

Beirut - Lebanon

بيروت - لبنان

هاتف Tel (+961 1) - 862905 - 861178

800811

فاكس Fax (+961 1) 805478

بريد إلكتروني daralkitab@idm.net.ib

info@Kitabalarabi.com

academia@dm.net.ib

Kitab alarabi

www.kitabalarabi.com
www.academiainternational.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن أفكار أصحابها ولا تعبر
بالضرورة عن رأي الناشر

المحتويات

من مؤلفات الأديب

إهداء

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر

من مؤلفات الأديب:

دار " جوليار" للنشر

أغنام السيد، 1998 (بوكيت 1999)

أحلام الثعالب، 1999 (بوكيت 2000)

الكاتب، 2001 (بوكيت 2003)

زيف الكلام 2002 (بوكيت 2004)

خُطّاف كابول، 2002 (بوكيت 2004)

سهم الموت، 2004

ابنة العم 2003 ،k (بوكيت 2005)

محاولة الاغتيال، 2005 (بوكيت 2006)

صفارات الإنذار في بغداد، 2006 (بوكيت 2007)

الدَين الذي يسدده النهار إلى الليل، 2008 (بوكيت 2009)

دار "فوليو" للنشر

سهم الموت

موريتوري

فراغ خدّاع

خريف الأوهام

دار "ما بعد القمر" للنشر

زهرة بليدا

إهداء

إلى فقيدنا بيير آندريه بوتانغ

I

إذا أردت أن تسير بخطاك نحو السلام الأبدي
فابتسم للقدر الذي يكيل إليك الضربات
ولكن لا تسدّد لكماتك للآخرين

عمر الخيّام

الفصل الأول

- لا تنظر!

فزع جونيور، فاستدار على عقبيه.

كان "عاش" الأعور يقف خلفه على ركام من الفضلات، واضعاً قبضتيه على وركيه، في حالة تَحَدٍّ، وقد بدا الغضب على محياه، بينما كانت لحيته الكثيفة تتهدّب مع هبّات النسيم.

أحنى جونيور رأسه كالصبيّ الأفّاق الذي فاجأه أحدهم متلبساً. وتاهت أصابعه المضطربة في أعلى رأسه، تحك جمجمته.

- لا أدري كيف انتهى بي المطاف إلى هنا.

- آه ! نعم...

- إنها الحقيقة يا "عاش"، كنت أسير غارقاً في همومي، ولا أدري كيف حطّت بي قدماي هنا.

صاح "عاش" وهو ينتفض غضباً من قمة رأسه إلى أخمص قدميه: أيها الكاذب! لستَ سوى كاذبٍ نذلٍ يا جونيور! يكفي أن تغمس لسانك في الماء المقدّس لكي تنبعث منه رائحة المجاري.

- أؤكّد لك...

- لا تتفوه بأي كلمة! فعندما نشبه الجرذان في تكويننا يجدر بنا ألا نختبئ. إنها مسألة كرامة.

عندما يخرج "عاش" عن طوره تكاد النقطة التي تغطي قرنية عينه المصابة تختلط تماماً بالبياض الذي يحيط بها لتجحظ عينه السليمة كثر فأكثر.

- اعترف بأنك لا تستطيع أن تملّ من ترويض السيارات.

- هذا ليس صحيحاً، قلت لك إن الهموم أثقلت رأسي، قالها جونيور وهو يئن.

- قل هذا الهراء لغيري! إنني أعرفك أكثر مما أعرف ما في جيبي الصغير. ما الذي يثير اهتمامك في تلك السيارات العتيقة المسعورة التي تجري في كل

مكان؟ ستتسبب بألم في عظام رقبتك من شدة التفاتك يَمنة ويسرة، مما قد يضطرك إلى وضع صفائح على جانبي رأسك لكي تنظر أمامك.

- أنا لست دوّارة. تمتم جونيور.

- ما الذي "تهمهم" به؟

- لا شيء...

- بلى، لقد تفوهتَ بكلمات.

رأى جونيور أنه من الأسلم عدم الإلحاح. إنه رجل ساذج، قصير، هزيل، أحمر السحنة، تعلو وجهه طبقة كلسية بيضاء. يُخيّل للناظر إليه أنه يرى بييرو، تلك الشخصية المسرحية الهزلية، وقد نبتت على ذقنه بعض الشعيرات الطائشة. أما منكباه فضيقان جداً بحيث تلتصق ذراعاه بجنبيه. وعيناه الغائمتان لا تعبّران عما يجول في خاطره، وتبدوان كأنهما تلامسان العالم من حولهما دون أن تطيلا حقاً الوقوف عنده. ثلاثون ربيعاً مضى من عمره، يحملها في جسد فتى مراهق، يعلوه رأس فارغ.

نزل من الرصيف العائم القديم، وبالغ في بذل الحيطة لكي لا يتهشم وجهه. حيلةٌ يلجأ إليها لعلّها تنطلي على "عاش" فيعطف عليه. ثُمَّ ما أن وطأ بقدميه الأرض الصلبة، وبغية اجتناب نظرة "عاش" الساخطة والحانقة، تظاهر بإصلاح أزرار قميصه المتداخلة.

فما كان من "عاش" إلّا أن غرز قبضتيه بقوة في تجويف وركيه. إنه منهك القوى ولكنه في الوقت ذاته لا يستطيع إلّا أن يكون متسامحاً. عبثاً حاول أن يتظاهر بالاستنكار، فسحنة جونيور التي تدل على الندم، قد أثّرت في أعماقه أيما تأثير، والحزم الذي كان يريد أن يظهره ما لبث أن تداعى.

أطلق زفرة ثم قال وهو يباعد ذراعيه:

- كم مرة عليّ أن أعيد على مسامعك أن هذا المكان ملعون؟

- ولكني أقول لك إني لم أقصد ذلك...

- لستُ مضطراً لأن أثق بكلامك... ولكن حذارِ يا جونيور. لا تدع نفسك تنزلق إلى مثل هذه اللعبة. لن أكف عن تحذيرك. في البداية، نعتقد أننا نروّح عن أنفسنا، وذات مساء نجد أنفسنا نلاحق السيارات العتيقة حتى نصل

المدينة، وعندما نصحو من غفلتنا نجد أنّ الأوان قد فات... جونيور، أتحب أن تقضي ما تبقى من عمرك في المدينة؟

هز جونيور رأسه بعنف، وقد أثقله الحاجبان كما أثقلته الشفتان.

ألحّ "عاش" مجدّداً، مشيراً بذراعه بازدراء باتجاه المدينة:

- هل تحب أن تقضي ما تبقى من عمرك "هناك"؟

أجاب جونيور وهو يحرّك رأسه، علامة الرفض:

- محال أن أذهب إلى أي مدينة، لم أفقد عقلي بعد.

- إذن، تعال من هنا أيها الأبله.

اتخذ جونيور وضعية التأهب وعاد.

قال له "عاش" وهو يلوح بإصبعه محذراً إياه:

- حاذر أن تلتفت وراءك. لقد حذر الله سبحانه وتعالى النبيّ لوطاً: "سأجعل قرية سدوم عاليها سافلها. أسر بأهلك على الفور. وعندما تسمعني أجهزتُ على القرية وأهلها، حاذر أن تلتفت وراءك". فجمع لوط أهله، وأمرهم بعدم الالتفات عندما يسمعون أمر الله بإنزال العقاب بقومهم. ولكن امرأة لوط كانت الوحيدة التي التفتت وراءها.... أتدري ما الذي أصاب امرأة لوط؟

- لقد قصصتَ عليّ ذلك.

- لا شك أنك لم تفهم الرسالة.

- لم أنسها.

- قل لي إذن ما الذي أصاب امرأة لوط؟

جعل جونيور يسحق أصابعه، وقد انحنت كتفاه، وقال بصوت متهدج:

- لقد تحولَّتْ إلى تمثالٍ من ملح.

- أتحبُّ أن تتحوّل بدورك إلى تمثال يا جونيور؟

- لن يكون الأمر حيوياً.

- عد بجسدك الهزيل إلى هنا، وحاذر أن تلتفت وراءك. إنّ للمدينة سحراً أخّاذاً يا جونيور، أما حين نوصد الباب في وجهها، فالأمر سيكون نهائياً.

لحق جونيور بالأعور وهو يتعثّر فوق القمامة المبعثرة في مستودع النفايات. إنه يشعر بعدم الرضا لأنه ضُبط في الطرف الآخر من الأرض المقفرة، وهو الآن يعاني من تأنيب الضمير.

شَدَّهُ "عاش" من مرفقه ودفعه أمامه وتابع قائلاً:

- لقد حذّرني الله أنا أيضاً، إذ قال لي: "خذ يا 'عاش' بقضك وقضيضك وارحل. فالمدينة لا تناسبك. اخرج منها ولا تلتفت وراءك". أمضيتُ ساعات طويلة في الطريق أحاول استيقاف السيارات. وراودتني نفسي مراراً بإلقاء نظرة خلفي، ولكني تماسكت. ثم توقفتْ شاحنة، فما كان مني إلّا أن قفزتُ إلى داخلها. وفكرت في تلك اللحظة أن أستخدم ذكائي وأنظر في المرآة العاكسة وللمرة الأخيرة باتجاه المدينة. ولكن الله تعالى لا يكتفي بإصدار أوامره، بل يأخذ بالحيطة: فالمرآة العاكسة فرقعت في وجهي مما جعلني أفقد عيني.

كان جونيور شبه مغتاظٍ، حرك رأسه برفق، ودمدم قائلاً:

- لم يُصِبْ في رسالته.

- من هذا؟

- إنه الذي أرسلك.

توقف "عاش"، وشبّك ذراعيه على صدره الذي يشبه صدر الدب الهزيل، وقد سال لعابه من بين أسنانه المتفرقة الناتئة:

- فلتعلم جيداً يا جونيور أنني أمقت كلام الكفر.

فما كان من جونيور إلّا أن رفع كتفيه وتابع تخبّطه في القاذورات. أسرع "عاش" ليلحق به وقد انتفخت وجنتاه. كانت الكثبان الرملية تمتد أمامهما لتصل إلى البحر الأبيض المتوسط، واختفى الأفق خلف الستائر التي كانت تتشكل من رشاش البحر، ومالت الشمس إلى الغروب، فبدت كالبرتقالة الناضجة، بينما تطاولت الظلال استعداداً لاستقبال الليل.

غضب "عاش" وبادره بالسؤال:

- هل أحرقتك النار في مؤخرتك؟ أم ماذا دهاك؟

أبطأ جونيور الخطى ثم توقف، وقد تدلى رأسه على صدره، وتمركزت بزاقة

على أرنبة أنفه. لم يكن فخوراً بنفسه، ولكنه في الوقت نفسه، كان يشعر بوخز الضمير لأنه لم يجد العذر المقنع ليدافع به عن نفسه. هنا هدده "عاش" قائلاً:

- لهذا السبب تراودني أحياناً فكرة الامتناع عن توجيه الكلام إليك، بسبب حساسيّتك المفرطة. وعندما نكون كذلك نرفض الاعتراف بأخطائنا. ومع مرور الزمن يملّ الآخرون من صحبتنا ونجد أنفسنا وحيدَين، وقد ساءت بنا الأحوال. لا ينبغي أن يتجهم وجهنا عندما يوجّه لنا الآخرون النصح ليخرجونا من المآزق. ولا يتخذ أحدنا الإرشادات على أنها مجرد نهي، ولا التوبيخ البنّاء على أنه شتائم. ينبغي علينا إن كنا ننوي فعلاً التعلّم، أن نصغي جيداً لما يقال لنا، وأن نطبّق حرفياً النصائح التي تُسدى إلينا. إنني ألازمك يا جونيور بسبب حبي لك، ولا أريد أن يلحق بك أي أذى.

تدلّت رقبة جونيور أكثر فأكثر، وبالغ في مد شفتيه.

ضرب "عاش" باطن كفه على ركبته وقال له:

- إنك لا تتردّد عن إبداء استيائك عندما أوجّه لك توبيخاً ما. وعندما أدعك وشأنك تتهمني بالتخلّى عنك. إني أتساءل كيف عليّ أن أتعامل معك. علينا أن نتّفق حول هذا الأمر للمرة الأخيرة...

مسح جونيور أنفه بمعصمه، فكل صيحة من راعيه تجعله يشعر بالندم أكثر فأكثر. لقد أخذ منه الخجل كل مأخذ، لأنه أغاظ الإنسان الذي يحبه أكثر من أي أحد على وجه البسيطة. لم يكن صوت الأعور هو الوحيد الذي كان يرعد في رأسه الساذج، بل خُيِّل إليه أن الآلهة كلها تعنّفه.

لذا حاول تغيير الموضوع:

- قلتُ لك إنّني أخطأت الطريق عن غير عمد، وها أنت توبخني وكأني وغد. فهل اقترفت جريمة السرقة، أم أني أسأت إلى مستقبلي؟ هل جحدت ربّنا في موضع ما؟ إنني هنا لأحرّك ساقيَّ وأفكر في لا شيء. فهل هذا ممنوع؟ ... كلا هذا ليس ممنوعاً. لماذا إذن تلوّح لي بأصبعك تتوعّدني، وقد قطّبتَ حاجبيك؟

شعر "عاش" أن قلبه يكاد يتفطّر، ويذوب كلوح الجليد فوق لهب أنبوبة اللِّحام، شفقة على جونيور من شدة البؤس الذي ملأ كلماته. وقد شعر بألم في

حلقه لدى ابتلاع ريقه.

- كل هذا من أجل مصلحتك يا جونيور، وأنت تدرك ذلك جيداً.

ظلّ وجه جونيور عابساً لمدة دقيقة، أحسّ فيها أنه استطاع أن يقلب الموقف لصالحه، فقرر أن يطيل الأمر. كادت شفتاه أن تلتفا على ذقنه، وكان يتطلّع بطرفٍ خفيّ، مما شوّه عنقه من الخلف بشكل يدعو إلى السخرية. فما كان منه إلا أن اعترف قائلاً:

- أنا لم أدّعِ أن ذلك ليس لصالحي، ولكن كان بإمكانك أن تشدني من أذني برفق... فأنا لا أحب أن أراك غاضباً. قالها بلهجة بالغة التكلّف، إنك تعاملني بحنان كبير، لذا أشعر بالذنب.

هنا جاشت عواطف "عاش"، ولف ذراعه حول عنق من هو في رعايته، وأخذ يداعب شعره بمنتهى الحنان. احتمى جونيور بجسده القصير والهزيل تحت إبط وصيّه، وأغمض عينيه لينعم بكل ذرة من كيانه بهذا الملاذ. انتهره "عاش" بحُنُوّ:

- أيها الصبي الوقح!

- لست بالصبي الوقح، قالها جونيور بدلال.

- إنك حقاً بغل يا جونيور. أتدري لمَ أنت بغل؟

- لأنه يجب على الآخرين أن يدفعوني لكي أمشي إلى الأمام.

- تماماً.

ثم أبعده عنه قليلاً، وأمعن النظر في عينيه.

- إنك إنسان محظوظ يا جونيور. فعلاً أنت محظوظ لأنك بيننا، إنك لا تقدّر كم أنت محظوظ. لو كنت في غير هذا المكان لما قدّم لك أحدٌ الهدايا.

- أعرف ذلك.

- فهل تقدّر؟

أبعده "عاش" برفق عنه، وبحركة مبالغ فيها أشار له إلى الشاطئ وإلى الكثبان الرملية التي يلتحم بعضها ببعض إلى ما لا نهاية، وإلى مستودع النفايات الذي تغطيه أعداد هائلة من الطيور الداجنة، ثم أشار إلى الأرض

المقفرة المكتظة بهياكل السيارات، وبأكوام الحصى، ونفايات الحديد الملتوية، و"كأنها موطنهم".

- هذا هو موطنك يا جونيور. إنك هنا في منزلك، لا تَهِمْ على وجهك في الشوارع. لن تئنّ على أعتاب العربات. ولن تلعق أطباق الحساء الشعبي، ولن يشير أحد إليك بأصبعه وكأنك قاذورة.

كان جونيور يصغي إلى حديث "عاش" بانتباه وتركيز كبيرين. كلما استرسل الأعور في كلامه، انبسطت شفتا جونيور بالابتسامة حتى كادت أن تفلق وجهه.

- إنك لستَ مشرداً يا جونيور.

حرك جونيور رأسه ليقول لا.

- لا يطالبك أحد بإبراز أوراقك الشخصية، لأنك لا تملك أي أوراق. إنك تسخر من أوراقهم يا جونيور. لست مضطراً لتقديم تقارير لأحد. أنت رجلٌ حُر يا جونيور. أنت تنتمي لجماعة "الحُر".

أخذ جونيور نَفَساً عميقاً فامتلأت رئتاه، ورفع رأسه محاولاً إظهار رباطة جأش.

- ما هي جماعة "الحُر" يا جونيور؟

- "الحُر" مشرد يحترم نفسه، يا "عاش".

- وكيف هي طريقة مشيته، يا جونيور؟

- مرفوع الرأس يا "عاش".

- وأنت يا جونيور، كيف تمشي؟

- أمشي مرفوع الرأس.

- لأنك اخترت العيش معنا. أعني: "هنا"... في "وطننا". حيث لا يحجب عنا الأفق أي راية. ولا يوجد شعارات لتعيدنا إلى الصواب. ولا تضطرنا صفارات الإنذار لإطفاء النار في معسكرنا في ساعات محددة. وعلى كل حال، نحن لا نعرف التوقيت، هناك النهار وهناك الليل، وهذا كل شيء. ننهض وقت ما نشاء، ونخلد إلى النوم عندما نرغب، ولا نسمح لأحد أن يُملي علينا

سلوكنا. نحن في بيتنا مع أنه لا يوجد لدينا عَلَم، ولا نشيد وطني، ولا مشروع اجتماعي. لنا وطننا الخاص بنا، وهو هنا تحت أعيننا، وتحت أقدامنا، إنه وطن حقيقي، يجعلنا نستغني عن كل شيء آخر... هل نحتاج للآخرين يا جونيور؟

- كلا، لا نحتاج لأحد يا "عاش".

- هل يتعقبنا الدائنون يا جونيور؟

- كلا يا "عاش"، مع أنني لا أعلم معنى كلمة "الدائنون".

- نحن نحيا لأنفسنا، وهذا يكفينا.

- نتدبّر أمورنا بمفردنا، تماماً مثل الكبار يا "عاش".

- وأين نحن يا جونيور؟

- في موطننا.

- نحن "هنا"... هنا على أرض "الحُر". هنا كل شيء مسموح، ولا يوجد شيء ممنوع. وهنا لستَ ملكاً، لستَ جندياً، لستَ خادماً؛ هنا أنت "أنت".

- قلتَ لي ذات يوم إنّي هنا ملك نفسي.

- لم أكن أكذب. أنت هنا سيد نفسك. تتصرّف كما يحلو لك. ليس مهماً أن تكون على صواب أو على خطأ. تتصرف بواسطة أو تتصرف بدون، هذا ليس مهماً أيضاً. أنت "موجود"، وهذا لا يُقدّر بثمن.

امتدت زوايا شفتَي جونيور لتصل إلى شحمة أذنيه. ولمعت عيناه استبشاراً.

- هل ستحدثني عن كل ما أريد يا "عاش"؟

- وهل سبق أن رفضت ذلك، ولو لمرة واحدة؟

- هل ستروي لي حكايات الناس والحيوانات الناطقة، وهل ستروي لي الخرافات المملة؟

- كل ما تريد يا جونيور. لم يسبق أن رفضت لك طلباً قط.

- إذن حدثني...

- ما الذي تريد أن أرويه لك يا جونيور؟

أخذ جونيور يحجل في مكانه، ويصوّب بقبضة يديه ضرباتٍ في الهواء كالطفل المدلل، وهو على يقين أنه لو طلب القمر لحصل عليه على طبق من فضة.

- ما الذي يحصل عندما يهيج البحر يا "عاش"؟

- ياه....

- من فضلك.

- لقد رويتُ لكَ مئات المرات.

- لا تعذبني، قالها جونيور بحماس. قل لي من فضلك ما الذي يحدث عندما يهيج البحر؟

- لقد نسيت آلتي الموسيقية (البانجو) في البيت.

- هذا لا يمنعك من أن تحكي لي... "عاش"! أتوسل إليك يا "عاش". إن الأمر سيُدخل السرور إلى نفسي. وأنت تقول إنّك تسعى دوماً إلى تحقيق سعادتي.

قطب الأعور وجهه للإعراب عن استيائه، ثم أمام ابتهاج الفتى الذي أخذه تحت رعايته، حدّق في سحابة في السماء، تنحنح، وبدأ يروي بلهجة جذابة:

- عندما يضطرب البحر، فذلك يشير إلى سوء الأحوال الجوية بالنسبة لسكان المدينة، أما بالنسبة "للحُر" فإنه احتفال للبحر. وبينما يختبئ سكان المدينة داخل بيوتهم، نقف على الشاطئ الصخري لنشهد عرس الأمواج بصمت مطبق. لأنه في حين لا يستطيع سكان المدينة إغماض أجفانهم بسبب تيار الهواء، يكتشف "الحُر" لحناً موسيقياً في كل موجة. هذه هي ميزتنا يا جونيور، هذا هو سرّنا، نستشفّ سعادتنا في كل الكائنات التي خلقها الله، لأننا نعرف أن ربنا يجيد الفن. أما سكان المدينة، فلا يدرون كنه هذه الأصوات، منازلهم دافئة ويملكون عدداً لا بأس به من وسائل الراحة، ولكنهم أين ما يشيدون إمبراطوريتهم، فإن السعادة لا تتسلل إلى قلوبهم. يعتقدون أن سعادتهم تكمن في الاعتراض بإلحاح. ولكن هذا عارٍ عن الصحة. اعلم يا جونيور، أن السعادة تكمن في لزوم الصمت عندما تَتلاعب الأمواج. إننا لا نملك الكثير ولكننا سعداء في فقرنا. هذا هو الفارق بيننا. ما يعتبره الآخرون

طقساً سيئاً نعتبره نحن عيداً. الموضوع متعلق بطريقة التفكير.

- يا للعجب! صاح جونيور منتشياً. لو نُظِّم اقتراعٌ لأدليت بصوتي لصالحك دون تردد.

***

الفصل الثاني

انغمس قرص الشمس في البحر، لقد حاول التعلّق بالسحب ولكن محاولاته باءت بالفشل، لم يتمكن أن يمنع نفسه من السقوط. لا بدّ أنه يكره الامتثال لهذا المصير اليومي الذي يودي به إلى مكان سحيق، ولكنه لا يستطيع أن يغيّر شيئاً في الأمر. فكل شيء في هذا الكون آيل إلى الفناء. وكل سلطان مصيره إلى الزوال.

وهناك على الشاطئ المغطّى بالطحالب المتعفّنة، وقفت أسراب النورس تستردّ أنفاسها بعد رحلة طويلة، طاردت خلالها مراكب الصيد العائدة إلى المرفأ.

ها هو "نيغوس" يقدّم لنفسه عرضاً عسكرياً من جهة مستودع النفايات. إنه صامد في وقفته، متأهّب، مرتدٍ قبعة الهجوم، قد استقرت صفارة وهمية في منقاره، جعل "كلوفيس" ذلك الرجل القويّ البنية، الذي تكاد قامته تطال البرج، المترنح في مشيته، الذي يحمل مخاً لا يتجاوز وزنه رأس الدبوس، جعله يسير الهوينا. وقف "نيغوس" فوق كومة من النفايات، بطوله الذي يقارب العمود، وقد بدا بهيئة السيد الحازم، آخذاً بالصراخ، وإملاء الأوامر على "كلوفيس" الذي يمتثل للأوامر بصبر نادر.

وفي الأسفل، حيث يرتطم المنحدر الصخري بالبحر، تضرب الرياح الهائجة سطح الأمواج، جاعلة إياها ترتعش، بينما تبذل الصخور القزمة التي غمرها الزبد، جهداً مضنياً لتُبقي رأسها خارج الماء.

خلف هذا المنظر، تنتصب أبنية المدينة شامخة في السماء، ملتحفة بالإسمنت المسلح، وكأنها جثث هامدة وعلامات توحي بانعدام الحياة.

لقد تهيأ الليل ليكتنف بأجنحته الكائنات والأشياء، بعد أن تراجع صخب العالم أمام ضوضاء الأمواج المتزايد.

"يوم آخر ينجو بنفسه خلسة"، حدّث "بليس" نفسه بهذا وهو يعتلي السلسلة الصخرية المطلّة على سطح الماء، وقد انقبض وجهه كأنه يشكو من تشنج مؤلم.

يحب "بليس" تأمل منظر الغروب، عندما يغيب ضوء النهار في قاع البحر. إنه يجد في هذا الاضمحلال تنبؤاً مبهماً يحرك شيئاً ما في أعماقه، مع أنه لا يستطيع أن يحيط به. يوم آخر ينحسر. يشبه الأمر فراق قريب يُؤسف لرحيله، لأننا لم نعرفه عن كثب. لا يعرف "بليس" سبب هذه التعاسة التي تستحوذ عليه كل مساء، عندما يتسلق الصخرة، ويضع يديه على وركيه، وقد امتلأ قميصه بالنسمات البحرية التي تداعبه، وسلبت رشده ألوان الغسق الدافئة والساحرة. وكأنه يتوقع انبثاق وميض نجم من خلال حمرة الشفق، قد يستطيع هو وحده تفسيرها، إلا أنه مدرك تماماً أن هذه العلامة لن تظهر أبداً. مع ذلك يستطيع أن يمضي ساعات طويلة واقفاً، متسمراً على صخرته الشامخة بينما تتغلغل الرياح في قميصه محدثة صوت تصفيق، ويطول به الوقوف وينسى نفسه، فيضطر أحدهم إلى إحضاره في بعض الأحيان.

لا أحد يعرف كيف آل "بليس" إلى هذه الأرض المقفرة، لمحه أحدهم قبل عقود طويلة يستولي على حاوية قديمة ألقت بها العواصف البحرية على الشاطئ. لم يغادرها منذ أن استقر فيها. لقد توصل إلى تجهيز منطقة خاصة به لا يسمح بدخولها إلّا لكلبته. كأنه يحصر نفسه في هذا المكان المغلق، كما يحصر قميص المجنون صاحبه، وهو غير مستعد لأن يتنازل عنه ولو كان البديل قصراً مشيّداً.

وعلى بعد مسافة قريبة، يحاول العجوز "هارون الأصم"، يوماً بعد يوم، اقتلاع غصن شجرة ضخم كان قد دفن حتى نصفه تحت الرمال. لم يكن "هارون" مصاباً بمرض الصمم، بل على العكس، كانت حاسة السمع لديه حادة جداً، لدرجة أنه يسمع العنكبوت وهو ينسج شُعَّهُ (بيته). لُقِّب بالأصم لأنه لا يريد أن يصغي لأحد. يُبقي "هارون" جذعه عارياً صيفاً وشتاءً. إنه يشبه "سيزيف"[1] تلك الشخصية الأسطورية التي حُكم عليها القيام بعمل مضنٍ ومتواصل. إنه رجل سقيم، تبرز أضلاعه تحت طبقة جلد رقيقة شاحبة هي بمثابة بشرته. يهيأ للذي يراه للوهلة الأولى أنه استطاع التملّص من بين يدَي حفّار القبور. لكن عندما تراود خاطره فكرة ما لا يستطيع أحد أن يثنيه عنها، حتى لو أتى أحدهم بقلّاعة مسامير، فإن أسنانها ستتكسر ولن يتراجع عن فكرته.

يأتي "هارون" كل صباح حاملاً مجرفته ليبدأ بالحفر حول الشجرة لإخراجها بعد أن يبصق في قبضتي يديه. وعند دنوّ الليل، لا تلبث هذه الحفر أن تُغمر مع ارتفاع مستوى مياه البحر، فيعود "هارون" في اليوم التالي ليحفر من جديد، مع يقينه التام أن الفيضان القادم سيعيد غمر هذه الحفر. لم يتمكن أحد في هذه الأرض المقفرة أن يدرك إلى أين سينتهي به الأمر بعد هذا الحفر، بيد أن "هارون" لا يفهم الموضوع من هذه الزاوية. إنه يحفر!.. لقد فقد بشرة يديه، أما قبضتاه فهما في حالة يرثى لها: ويتابع الحفر!.. ناشده بعضهم مرات عديدة أن يترك الأمر، لأنه سوف يقتل نفسه بهذا العمل المضني، وأنه لا داعي للاستمرار به، ولكنه لا يزال يحفر!..

وهناك، وسط الحاجز الصخري الذي يحمي الشاطئ من اجتياح نفايات المزبلة، غرز "عاش" الأعور قصبة الصيد. وبانتظار أن يلتقط السمك الصنارة، أخذ يدوزن البانجو... لا تزال تلك القصبة بدائية - إنها غصن صغير من القصب النخِر، له عرف مرقع في مناطق عدة؛ أما السدادة، فكانت مصنوعة من جريدة مرنة، يراقبها جونيور بحذر متواصل... وكان يحبس أنفاسه في كل مرة كانت موجة صغيرة تُسقِط الجريدة. ثم يلتقط حصاة، ويقذف بها في الماء عندما يتضح له أن الإنذار كان خاطئاً.

- دعك من هذا، يا جونيور.

- لماذا؟

- هلاّ فكرتَ لبرهة من الزمن، كيف تريد أن يقترب السمك إذا كنت ترميه بالحصى؟

ارتسمت على شفتي جونيور ابتسامة المرتاب وقال:

- لو كان السمك موجوداً لاصطدنا سرباً منه منذ أن وقفنا ننتظر.

- آمرك أن تتوقف، قالها "عاش" بنبرة الأمر، وقد حملق عينه السليمة.

- فماذا أصنع إذن؟

- تحافظ على هدوئك. فإذا لم يعجبك الأمر، تعود إلى المنزل وتنتظر ريثما أدوزن آلتي الموسيقية (البانجو).

- وماذا عن السمك؟

- قلت لك إنه لا يوجد سمك اليوم.

- ماذا؟ لقد قلتَ هذا، أنت؟

- نعم. وأنت أصررتَ. والآن، هل ستتركني أدوزن آلتي، هل تسمح لي بذلك؟

شعر جونيور بخيبة أمل. فما كان منه إلّا أن انكمش على نفسه، والتقط الحصى، ووازن الأمر، وعندما شعر بعين الأعور مسمرة في ظهره، تخلّى عن الحصى، مسح يديه في سرواله ودمدم:

- لا يهم.

وضع "عاش" على مضض، آلته الموسيقية جانباً، وحدّق ملياً في مَن هو في حمايته، ثم قال:

- لستَ على ما يرام. تبدو لي في الآونة الأخيرة محموماً كالحمار عندما يدنو منه سربٌ من الذئاب، وهذا يقلقني بشكل سيّئ.

انزعج "جونيور" لدى سماعه كلمة "محموماً" رغم أنه لا يعرف معناها، ولكن حساسيته المفرطة حذّرته أنّ في الأمر خطورة، كما أنه استاء من لهجة الموسيقار.

- إنني لست "بالمحموم"، وأذناي ليستا بالطويلتين.

تجاهل " عاش" الموضوع.

انتظر "جونيور" ريثما ينتهي الموسيقار من إعداد حبال آلته الموسيقية قبل أن ينفجر قائلاً:

- سأثير فضيحة يوماً ما.

ضرب "عاش" ذراع آلته الموسيقية وردّ عليه بجفاء:

- لن تعمل شيئاً.

- بلى، سأثير فضيحة.

للمرة الثانية، وضع "عاش" آلته الموسيقية جانباً، ثم ثنى ساقه اليمنى إلى الأعلى، وشبك أصابعه ذات الأظافر المتّسخة حول ركبته. لقد اعتاد هذه الوضعية كلما أراد أن يفقئ دملة.

- هل لك أن تشرح لي ما الذي تقصده بقولك: "سأثير فضيحة"؟

- أف ! لا أعرف شيئاً، ولكنني أحذرك أن الأمر لن يكون مريحاً.

- أليست مظاهر المدينة الخدّاعة هي التي تسيطر عليك أحياناً؟

- لا أهتم لأمر المدينة. فهي ليست مكاني.

شعر "عاش" بالارتياح هنيهة. ودون أن تغيب عن نظره تعابير الغضب التي ارتسمت على محيا مَن هو في حمايته، سأله بلهجة شبه لطيفة:

- لماذا تريد أن تثير فضيحة؟

غرز جونيور أصابعه في الرمال وقال:

- لا أحب أن يعاملني أحد كأبله.

- لا أحد يعاملك على أنك كذلك.

- بلى، وأنتَ أولهم...

هز "عاش" رأسه برفق وقد انفرجت أساريره، مما جعل جونيور يغير منحى الحديث، ويقول موضحاً بلهجة مختلفة:

- اعلم أني لستُ حانقاً عليك، أريد فقط أن أفهم: ما الذي يجعل من إنسانٍ أبلهَ دون آخر؟

- انسَ الأمر. فالموضوع جدّ معقّد.

- من فضلك يا "عاش".

- فكّر في شيء آخر، يا جونيور.

تناول جونيور حصاة وألقى بها بعيداً في البحر، وأصرّ قائلاً:

- أريد أن أعرف!

يعلم "عاش" تماماً أنّ عليه أن يشرح لجونيور، لِما يعلم من تعنته. فلن يهدأ له بال طالما أنه لم يحصل على إجابة واضحة عن سؤاله.

- تريد فعلاً أن تعرف، يا جونيور؟

شعر جونيور فجأة بالخوف من الخط العميق الذي ارتسم على جبين الموسيقار، ومن أسنانه التي برزت من خلال لحيته المشعّثة، ومن سيلان

اللعاب على شعيراته المخضبة بالبياض، والتي هي أشبه ما تكون بخيوط العنكبوت التي بللتها قطرات الندى.

- إن لم تكن جاهزاً، فلا ضرورة لذلك، قالها محاولاً التملّص من الموقف.

- هل تريد أن تعرف أم لا؟

- لِمَ تفقد أعصابك وتثور يا "عاش"؟ ألم يعد بالإمكان أن نتجاذب أطراف الحديث؟

فتح "عاش" يده وأشار إليها:

- ما هذا يا جونيور؟

انكمش جونيور على نفسه أكثر من ذي قبل، وقد تملّكه الحذر.

- قل لي بكل بساطة ما الذي تراه.

- "عاش"، هل ستتهمني مرة أخرى بالبلادة؟

- تريد أن تعرف أم لا؟

- الأمر منوط ب-.....

- قل لي إذن ما الذي تراه؟

اجتهد جونيور قائلاً: هل هي "تحية" ؟

رفع "عاش" رأسه بالنفي.

- أهي صفعة؟...

- أيها الأبله! لا تحاول أن تفسر شيئاً. قل لي فقط ما الذي تراه؟

- إنها حتماً طعنة مخاتلة.

- لم أنصب لك فخاً. هيا أسرع، لا وقت لدي. ما الذي تراه؟

- ....

- إنها يدي، أيها الأبله. إنك ترى يدي.

- لقد فهمت هذا.

أغلق "عاش" يده:

- والآن أغرز أصابعي داخل راحة يدي. ما هي النتيجة؟

- إنها لا تزال يدك يا "عاش".

- نعم، ولكن ماذا بالتحديد.

- إنك لن تغدر بي هذه المرة يا "عاش". إنها يدك، لم يتغير شيء في الموضوع.

- بل إنها قبضتي أيها الأبله! عندما نغلق يدنا تصبح قبضة.

- فما علاقة ذلك بالبلاهة، إنني لم أدركها بعد.

- سأشرح لك.

خلع "عاش" حذاءه وأشار إلى قدمه.

- ما الذي أريك إياه في هذه المرة، يا جونيور؟

- قدمك.

- جيد جداً.

- هل ترى؟

- والآن أغرز أصابع قدمي في باطنها. فماذا تعطي؟

- قبضة!

أنزل "عاش" ساقه، وتناول مجدّداً البانجو وراح يدوزنها بصمت مريب.

- هل اقترفت حماقة ما يا "عاش"؟

- أبداً... ما كان يفترض بك أن ترمي الحصاة على السمك.

***

الفصل الثالث

لم تتوقف الأمطار عن الهطول طوال الليل، مما أدّى إلى انهيار سقف العربة التي يستخدمها كلٌّ من "عاش" وجونيور ككوخ قذر يأويان إليه، فانسكب الماء عليهما كالإعصار بينما كانا نائمين. انتابت "عاش" نوبة غضب جامح، وأخذ يتأفّف ويتذمّر لدرجة أنه كاد أن يقتلع زردمة حنجرته، ومع ذلك لم يلجأ إلى مكان آخر أكثر أمناً. فمن المحال أن يتحرك من مكانه عندما تأخذه سِنَةٌ من النوم، حتى لو وقفت أمامه عاهرة. ولكن منذ شفق هذا اليوم، وبعد أن تبلل كلياً بماء المطر، أخذ يدقق النظر في سقف العربة، التي هي أقرب ما تكون إلى عربة الموتى، وانتهى به الأمر إلى اكتشاف شق عميق يمتد بين زاويتيها. لم يكن بحوزته مجرد قشة، ولا حتى مكواة لحام، كما أنه لم تمر بخاطره أي فكرة لسد هذه الثغرة، فما كان منه إلّا أن طرد جونيور خارجاً ليتسنّى له التفكير بهدوء.

انطلق جونيور إلى الشاطئ ينتظر بزوغ شمس هذا النهار وقد سئم من طول الانتظار. ودون أن يدري، وجد نفسه يتسكّع في ناحية الجسر العائم، وتساءل في قرارة نفسه لِمَ لا ينضمّ إلى الباشا وزمرته مع أنهم أناس دائمو الاعتراض والشكوى، وتصرفاتهم هي إلى الغرابة أقرب، غير أنه يمكن معاشرتهم في بعض الأحيان، عندما يتنازلون ويكلفون أنفسهم عناء ذلك. ثم إن سلوكهم معه كان دوماً مطابقاً للأصول. إنهم عندما لا يدعونه إلى تناول وجبة خفيفة معهم، يقدمون له مشروباً كحولياً رديئاً، يجعل بليد الذهن أبلهَ... مما لا شك فيه أن "عاش" لن يكون مسروراً من هذه الصحبة. فهو لا يحبّذ أن يرى من يرعاه يمضي وقته مع عصابة من قطّاع الطرق تعيش على النهب والسلب، دون أي اعتبار للمبادئ، ودون مراعاة للحد الأدنى من قواعد السلوك. هؤلاء الحمقى الذين يعتزّون بأنهم يعيشون على هامش الحياة بشكل كلّي بعدما أداروا ظهورهم للحضارة المدنية وطلقوها، لا يتوانون عن ممارسة القرصنة حتى على صناديق قمامة الأعداء الموجودة في الأحياء المحيطة بالمدينة... غير أن "عاش" كثير الحذر ويحترس حتى من خياله. فهو دائم المماحكة، وقد ملّ جونيور من مراقبته له على الدوام.

انعزلت العصابة في جحرها صباح هذا اليوم، وراح أفرادها في نوم سباتي، يُسمع غطيطهم كما لو كانوا خنازير أتخمهم النهم، وأفقدهم الهذيان والنتانة عقولهم.

ها هو الباشا الملقّب بالرئيس، فصوته يفوق صوت الرعد عندما يزعق، مستلقٍ على ظهره في هذا "الحيّ الخاص به" - والذي هو مجرد خيمة مصنوعة من ألياف غليظة، تصلح لصناعة أكياس القنَّب، ومن غطاء للسرير، ويفخرون بتسمية هذه الخيمة بـ "القصر". وإلى جانبه "بيبو" المعروف بكبش المحرقة، قد احتمى به بحنو. أما الباقون فقد انقبضوا على أنفسهم هنا وهناك، وهم أشبه بالأموات منهم إلى الأحياء.

كان "نيغوس" هو الوحيد الواقف على قدميه الشبيهتين بأقدام الأقزام، وقد اختفى قسم من رأسه تحت خوذة حربية، وهو ينظر باشمئزاز نحو زريبة الخنازير.

لم يشعر "نيغوس" بالراحة قط. لقد كان يحلم قديماً بالتطوع في الجيش، وبارتقاء أعلى المراتب العسكرية بسرعة النيزك، متجاوزاً بذلك التسلسل العسكري الاعتيادي، ومطيحاً بالمناهضين له بهدف القضاء على منافستهم. وعندما يرأس أركان الحرب لمجموعة تتفانى في إخلاصها بقدر ما تشعر بالرعب، يستطيع أن يخلق حالة حرب لأي سبب من الأسباب، وأن يرسل جيوشه في حملة اجتياح للعالم. كان يتخيّل نفسه ممتطياً حصاناً أبيضَ، واضعاً خوذة منمّقة بالذهب والفضة، مُثقلاً صدره بالأوسمة، مُقطّباً وجهه بسبب الغضب الجامح والتعطش للغزوات، مفتعلاً الحرائق في العواصم التي هجرها سكانها، مخرباً السهول والوديان، يُعْمِلُ في الجبال والحقول الحديد والنار، مذلاً الحكام والشعوب. كانت تلك الرسوم الجدارية المائية أشد ما يبهره، ويجعله يلهث في الليل كما في النهار... كان يكفي أن يُغمض عينيه على تلك العروض المهلِكة لكي يضرب في صدغيه الصراخ المدوّي، بينما كان يرتقي في الفضاء مثل الراهب... لكن المشكلة كانت تكمن في قِصر قامة "نيغوس"، فهو لا يتجاوز طول الحربة، مما كلفه رفض الثكنات لطلبه. وعندما تقدّم إلى مكاتب التوظيف المتعدّدة من خلال الحملات الإعلانية، كابد فشلاً ذريعاً، جعله يفقد اعتباره لنفسه. فغرق في حفلات الشراب المزرية،

ولما نال منه التعب والإعياء نتيجة مداهمة الشرطة الأخلاقية، وسخرية العاهرات منه، آل به الأمر إلى هذه الأرض المقفرة، حيث تُرتكب أعمال الخزي والعار في الظلام الدامس، وتبقى الأسرار الأكثر خطورة طيَّ الكتمان.

في الواقع، لم يتنازل "نيغوس" قطّ عن طموحاته الاستبدادية. لقد غرق مجدداً في أوهامه منذ أن اكتشف هذه الخوذة اللعينة التي علاها الصدأ على الشاطئ، إنه يشغل معظم وقته في تشكيل فرق حربية ينسجها في خياله ثم يركلها في مؤخرتها في النتانة الوهمية للمزبلة العمومية. بل وصل به الأمر إلى تنصيب جرو في مرتبة عريف قبل أن يعزله بسبب عصيانه المميز.

كان جونيور يخشى نيغوس. كما كان الجميع يرهبون جانبه: هزيل الجسم، أسود اللون كالمسمار، دميم الخلقة كالقمل، لا تعيه الحيلة، لدرجة يستطيع أن يمنع بمفرده قارة كاملة من القردة من الاقتراب. وعندما يضمر الضغينة لأحدهم فإنه لا يغيب عن ذهنه أبداً. إنه يجسّد الحقد العنيد، والضربات المسدّدة التي لا يمكن تفاديها. تعساً للمتهور الذي يعترض طريقه! الباشا نفسه يهابه. وعندما يشتمه، لا يرد عليه نيغوس بل يكتفي بقول "موافق" وهو يبتعد في الخفاء، بينما تبقى كلمته نذير شؤم في المكان الذي غادره، وتثير القشعريرة في البدن من الطريقة التي ينطقها بها، إلى درجة يجد الباشا نفسه مرغماً على اللحاق به لاسترضائه.

يكره جونيور البقاء بمفرده بصحبة نيغوس. لأن هذا الأخير قادر على أن يأخذه خلف مستودع القمامة ويجعله يمشي بخطىً منتظمة حتى يغمى عليه، ثم بطرف العصا، يرغمه على الرمي إلى أهداف وهمية، والزحف تحت رصاص العدو، وتنظيم هجوم في كل الاتجاهات، يستطيع أيضاً أن يجعله يَمْثُل أمام المحكمة العرفية لينتهي به الأمر إلى الإعدام رمياً بالرصاص.

ولكي يعود أدراجه، تظاهر جونيور أنه تذكر أمراً طارئاً، فضرب جبهته براحة كفه، ودار على عقبيه وفرّ زحفاً على بطنه باتجاه الشاطئ. ولم يتوقف ليسترد أنفاسه إلّا عندما شعر أنه بات في مأمن من أي أمر أو أي إنذار، وقد انحنى من فرط التعب، وامتلأت رئتاه بالهواء، وشعر بألم في حلقه.

- هل اكتشفت الشيطان في أثرك؟ سأله هارون الأصم الذي كان هناك، وكان عارياً كالدودة، ويحمل سرواله في يده.

- كلا.

- لماذا إذن أطلقت ساقيك للريح؟

- إنك عريان تماماً يا هارون، قالها جونيور ليغيّر مجرى الحديث.

- ذلك بسبب قمل العانة. يوجد على الأقل مليوناً منها في سروالي... إني أذكر جيداً، عندما نمت كنتُ مرتدياً سروالي. إني أجزم في ذلك. وعند الصباح وجدتُ نفسي عُرياناً. صحيح أن العاصفة أطلقت رصاصاً كالمفرقعات طوال الليل، وأن الرياح تجاوزت حدودها، غير أن شيئاً لم يهتز في جحري. ولم أدرك لِمَ لم أعد أرتدي سروالي، كما لم أفهم لِمَ وقع على الأرض، لم أفهم إلّا عندما التقطت سروالي من على الأرض، ووجدت شيئاً ما يعج في داخله. صدّق أو لا تصدّق يا جونيور، أنت حر، ولكن القمل هو من نزع عني سروالي!

- من أجل ماذا؟

- لم أطرح عليه السؤال، تمتم هارون وقد أغاظه السؤال السخيف.

ثم تسلق الكثيب لكي يدور حول الحاجز الصخري.

- إلى أين يا هارون؟

- إني أبحث عن قرية النمل.

- لِمَ؟

- ستفهم فيما بعد.

راح الاثنان يتخبطان في تلال الزبالة المغمورة بماء المطر، ثم انتهى بهما المطاف إلى الشاطئ الذي كانت تتصاعد منه الأبخرة من تأثير الشمس. نظر هارون تحت قدميه، وقلب الأعشاب بطرف غصن القصب. وتعقبه جونيور عن كثب ليكتشف ما الذي يدور في خلد الأصم.

وجدا أخيراً ما يبحثان عنه: قرية النمل.

جلس هارون القرفصاء، وأخذ يتفحّص أحجاماً صغيرة من النمل الأسود، وهي منهمكة في عملها حول مسكنها.

- إنها صغيرة جداً، لاحظ هارون وهو ينهض واقفاً.

وتابعا بحثهما، ثم عثرا على حفر مليئة بالحشرات الفزعة. وفي لحظة، شعر جونيور بالتعب، ففكر بالعودة إلى الموسيقار، غير أن فضوله أثناه عن عزمه.

- انظر! يبدو لي أن هذه مناسبة تماماً، قالها هارون أخيراً وهو ينحني أمام اضطراب جامح للنمل الأحمر الذي يدور حول كتلة رملية.

سارع هارون إلى إلقاء سرواله الداخلي بالقرب من قرية النمل وانتظر. فما كان من النمل الأحمر إلّا أن اقتحم السروال. هناك، وبعد أن سيطر النمل على الموضوع، استرخى هارون وقد بدا عليه الارتياح عند رؤية حركة النمل المكوكية التي تسبب الدوار لمن يشاهدها.

- سترى يا جونيور. إن الوقت الذي سيقضيه هذا النمل الشجاع في تطهير لباسي الداخلي من القمل سيستغرق أقل من الوقت اللازم الذي ستستغرقه منظمة الخدمات الصحية لإبادة الجرذان في كهف ما. انظرْ هاتان نملتان تقودان قملاً بطريقة عسكرية، أضاف قائلاً وهو يشعر بالاغتباط ويشير بأصبعه إلى مشاجرة عجيبة شنّتها مجموعة من النمل الأحمر على قملة متضخّمة.

- يا للعجب! اعترف جونيور وقد أدهشه المنظر، حتى "عاش" الملمّ بكل شيء، لم تكن لتخطر على باله مثل تلك الفكرة.

لم يكن هارون ينصت إليه. لقد فتنه منظر النمل الأحمر وهو يندفع في ثنايا السروال ليطرد مستوطنة القمل التي استقرت فيه بطريقة منهجية. وأخذت الحفلة الراقصة تحتدم مع اشتداد الهجوم؛ وبعد انتصارها، توجهت قوافل النمل الأحمر إلى قريتها محمّلة بالأسرى.

- في أقل من دقيقتين، سيكون النمل الأحمر قد مشّط المكان، وسيحمل حتى اليرقات. لن يبقى عليّ إلّا أن أنفض لباسي الداخلي قبل أن ألبسه.

- جونيوووووووور!

رفع الرجلان رأسيهما. لقد ظهر "عاش" فجأة من أعلى الصخرة الكبيرة، وأخذ يلوح بذراعيه على غرار طاحونة الهواء.

- ألا يستطيع أن يتركك ولو لثانية واحدة، هذا الدركي؟

- ذلك لمصلحتي، قال جونيور بامتنان.

- إنه يلازمك باستمرار، إن كنت تريد نصحي، فذلك يسيء إليك. أنت لست ظله.

- "عاش" يعتني بي. إنني جد محظوظ هنا. لن يُقَدِّم لي أحد الهدايا لو كنت في مكان آخر.

- هل هو الذي يحشي دماغك بهذه الحماقات؟

- إنها ليست حماقات. إنها الحقيقة الأكثر حقاً من الحقيقة نفسها.

نهض جونيور ولوّح بيديه باتجاه الموسيقار ليعلمه أنه قادم. وقبل أن يستأذن بالانصراف من هارون، انحنى على فرقة النمل الأحمر، وهمس قائلاً:

- كنت أتساءل دوماً عن فائدة النمل. لقد عرفت الآن.

أشار "عاش" بفخر إلى العمل الذي أنجزه من أجل سد ثغرة سقف "المنزل" - عربة سجناء علاها الصدأ، مجردة من كل شيء، خالية حتى من المقاعد، ولوحة القيادة، والأبواب؛ لقد بسط غطاءً قديماً على سطحها، ثم وضع فوقه حجارة كبيرة، وأطر عجلات، وقضباناً حديدية كي لا تنتزعها الرياح.

- هل هذا يروق لك يا جونيور؟

- نعم...

- والآن أغمض عينيك واتبعني.

- هذه المرة لن تغدر بي، قالها جونيور بزهوّ. كيف لي أن أتبعك بعينين مغمضتين؟

- إنه ليس فخ المغفلين يا جونيور. إني أَعددْتُ لك مفاجأة.

- نعم، ولكن هذا لا يبرّر اتباعي لك بعينين مغمضتين، أصرّ جونيور وقد سرّته سرعة بديهته.

- جيد جداً، اعترف "عاش". أعطني يدك إذا لم تكن واثقاً بي.

ودون أن ينتظر إذن مَن هو في كنفه، أمسك "عاش" بمعصم جونيور وساقه إلى خلف الشاحنة.

- والآن افتح عينيك.

- ياه ! صاح جونيور عندما اكتشف خيمة صغيرة شبه جديدة، قد نصبت إلى جانب العربة؛ إنها خيمة معسكر جميلة، تتسع لشخصين، صفراء اللون، قد نصبت بطريقة جميلة في "الباحة".

- ستكون مكان إقامتنا في الصيف، قرر "عاش" باعتزاز، نستطيع أن نجلس فيها عندما يكون الطقس صحواً، سنغرز مرافقنا في الرمل، ونمد أرجلنا إلى ما بعد نظرنا، ونمضي وقتنا بتحريك أصابع أقدامنا في الشمس. سنحيا حياة حلوة خالية من الهموم.

كاد جونيور أن يطير من شدة الفرح.

- من أين اشتريتها؟

فجأة تغيرت تعابير وجه "عاش"، وتلاشت ابتسامته، وزال حماسه ليحل مكانهما غضب جامح.

- اشتريتها يا جونيور؟

- بـ .....

وضع "عاش" قبضتي يديه على وركيه، وقد بدا أنه جد مغتاظ.

- الشراء؟ إنه لا يدخل في عاداتنا. إنه بدعة، إنه عمل منافٍ للطبيعة. عليك أن تلغي هذه الكلمة من عقلك. أن تمسحها من ذاكرتك، أن تطردها إلى الأبد. إننا لا نستخدم هذه الكلمة يا جونيور. كم مرة عليّ أن أذكّرك بذلك؟

- بـ .....

- هذا ليس جواباً. ماذا يفيد العلم إذا كنا لا نعيه في ذاكرتنا؟ قل لي أولاً، ما هي الحرية الحقيقية يا جونيور؟

- إنها ألا.....

- كلا، أسمعني الجملة كاملة، منذ بدايتها.

- الحرية الحقيقية تعني أنك لست مديناً لأي أحد، قالها جونيور بعظمة.

- وما هي الثروة الحقيقية؟

- الثروة الحقيقية هي ألا تنتظر أي شيء من الآخرين.

اغتبط "عاش" وانفرجت أساريره لوهلة، وأردف قائلاً:

- "الحُر" لا يشتري شيئاً لأنه لا يملك القرش. إنه يكتفي بأخذ ما تقدمه له الصدفة... "الحُر" يأخذ باعتدال، دون حسابات ولا فوائد. ميزته الزهد في المأكل... ماذا يعمل "الحُر" عندما يجد ورقة نقدية يا جونيور؟

- يبصق عليها يا "عاش".

- لماذا يبصق "الحُر" على الورقة النقدية يا جونيور؟

- لأن المال هو مصدر كل المصائب يا "عاش".

- هذا صحيح. فالمال هو أسوأ الأعمال الشريرة. عندما تستخدمه فإنه يبهر نظرك، وعندما يخدمك فإنه يستولي على قلبك؛ وما تكسبه بإحدى يديك، تنفقه بالأخرى، مما يودي بك إلى الفقر لا محالة، ويبعد عنك أصدقاءك الحقيقيين، ويزيد من الأشخاص الانتهازيين من حولك كبدائل. تماماً كالساعة الرملية التي تعمل على تفريغك وهي تملؤك.

- حسناً يا "عاش"، هل ستضجرني بقصصك القدسية.... كان مجرد سؤال طرحته عليك. إذا كنتُ في كل مرة أستفسر فيها عن شيء سأتلقى الضربات على أصابعي، عندئذ سأضع على فمي كمّامة وأصمت. إنني لم أطلب البحر لأشربه.

هدأ "عاش"، الحرص على التمسّك بالمبادئ أمر جيد، ولكن لا بأس من التغاضي بين الفينة والفينة. صفح عن الأمر، وقال بلهجة مختلفة:

- هذه الخيمة، وضَعَتْها الصدفة في طريقي، كنتُ واقفًا فوق المزبلة أبحث عن أي شيء أصلح به سقف المنزل، عندما وجدتها في كيسها البحري، وكأنها وُضعت لأجلي، وكأن الله تعالى أراد أن يعوّضنا عن المطر الذي بلّلنا طوال الليل... أليست جميلة؟

- نعم إنها جميلة، أجاب جونيور همساً.

- سنعيش فيها كأننا ننتمي إلى طبقة الأثرياء العظماء. بمفردنا أنا وأنت، سنستلقي على ظهورنا، ونوجه رؤوسنا إلى السماء ونعرّض أصابع أقدامنا للشمس. ولن يأتي أحد ليزعجنا. سنكون ملوك العالم.

- "عاش"، كنت تقول أننا نسخر من العالم أجمع. ملك نفسي، هذا ما أريد، ولكن ملكاً على الناس لا أوثر ذلك.

- إنه مجرد تعبير، جونيور. إذا كان لا يلائمك فإني أتراجع عما قلت، المهم أننا في هذه الخيمة، سوف ننفجر من قلة العمل، وسيحالفنا الحظ أكثر من كل المحظوظين على وجه الأرض. هل تشعر بالسعادة يا جونيور؟

- نعم، جداً!...

- حسناً، إذا كنتَ مسروراً فأنا أيضاً أشاركك نفس الشعور، عليك أن تثبّت ذلك في رأسك جيداً: نحن هنا تحت سمائنا، وأنت نصيبي من الآخرة، نحن الاثنين نشكل عالماً بأكمله، أنت عيني التي فقدتُ، وأنا العقل الذي ينقصكَ، لذا، حاول ألا تبتعد عني كثيراً من فضلك. أراهن أنك ذهبت هذا الصباح إلى رصيف السفن. لا بأس من أن تظهر علَناً مع هارون، فهو "حُر". لكن أن تختلط بفتية الجسر العائم الذين تأتي تصرفاتهم مخالفة لوعودهم، ويحتقرون المدينة ولا يتوانون عن نبش صناديق قمامتها، فإن سلوكهم هذا لا ينم عن عمل شريف. اعلم أنّ هؤلاء الناس غريبو الأطوار، قادرون على جذبك إلى المدينة معهم و...

- لن تطأ قدماي المدينة أبداً، جزم جونيور، وكأنه يُدلي بقسَم. أنا لم أجن. هنا موطني. أعمل مع، أعمل بدون، هذا لا يهم. أنا هنا صاحب الأمر إذا رغبتُ بذلك. والآن وقد أصبح لدينا خيمة، سيّما وأنها تسر الناظرين لجمالها، أما الباقي فلا يعنيني ولا يخلق لي أي مشكلة.

- أتقسم على ذلك، يا جونيور؟

- "الحر" كالمدفع، لا يرجع في كلامه عندما يتكلم بنبرة معينة.

شعر "عاش" بالحنان وغمرته السعادة في آن واحد، فأخذ مَن هو في كنفه من وسط جسمه، وضمه إليه بقوة.

***

الفصل الرابع

بزغ ضوء النهار بتثاقل، إنه على يقين أنه في الطرف الآخر من المدينة، لا أحد يهتم لحساب الوقت. أما بالنسبة لقاطني الأرض المقفرة، فليس كل ما يلمع ذهباً، ولا شيء يثنيهم عن الثمالة، ولا شيء يجعلهم يعدلون عن النوم إلى وقت الضحى. رغم ذلك، انتظر "عاش" حتى تطلع الشمس من الأفق لكي ينهض حاملاً تحت إبطه طرداً رُبط بعناية فائقة.

- إلى أين تقصد؟ سأله جونيور وهو نصف نائم.

- لقد وضَعَتْ كلبة بليس صغاراً.

- وإذن؟

- هنالك أعراف يا جونيور يجب مراعاتها.

أزاح جونيور المشمّع الذي يستخدمه كناموسية ليرمق الموسيقار بعين الحسد. كان "عاش" بكامل أناقته، لقد ارتدى معطفه الخاص بالمناسبات، لم يكن مكوياً من دون شك غير أنه كان نظيفاً، كما ارتدى قميصاً لم يسبق أن رآه أحد من قبل، ووضع ربطة عنق شبيهة بربطة عنق المهرجين، فهي حمراء بلون لسان الثور، وتفترش بطنه بغلاظة. كان مهيب الطلعة ببنطاله ذي الجيوب المنتفخة الذي يشبه بنطال الصياد، وحذائه الذي غسله بماء البحر، والوردة الاصطناعية التي شبكها بدبوس على ياقة سترته.

لم يكن جونيور على يقين، ولكن بدا له أن صديقه قد غسل وجهه، ومشط عش اللقلق الذي يقوم مقام شعره.

- إنك تبدو كالفلس الجديد.

- ليس أمراً سيئاً أن تعتني بمظهرك الخارجي ولو لمرة واحدة، قالها "عاش" بذلّ.

لم يدرك جونيور مغزى كلام الموسيقار. ربما لأن الكلمات لا تثيره حقاً. اكتفى بالنظر حوله، ثم توقف بصره عند مستوطنة عصافير تعيش على النفايات، تتشاجر على كومة من الأقذار، ليعود ويحدّق بلباس الأعور المثير

للسخرية.

- هل تنوي البقاء طويلاً عند بليس؟

- هذا سيدهشني. فهو إنسان مثير للقنوط.

- هل نذهب بعد ذلك باتجاه الجسر؟

- سنرى ذلك.

نهض جونيور وبادر إلى نزع الغبار عنه.

- على كل حال، لا أستطيع البقاء هنا بمفردي.

كان بليس مشغولاً بنزع باب كوخه الصغير - حاوية قديمة ألقتها الأمواج إثر غرق باخرة البضائع منذ عقدين تقريباً. كان صدره العاري والهزيل يتصبّب عرقاً. لقد تعبت يداه وهو يحاول جهده نزع قطع الحديد العتيقة، عندما رمى الرجلان بنفسيهما على الكثيب على بعد مترين منه.

- لا تريد قطع الحديد أن تلين أبداً، اشتكى قائلاً وهو يضاعف جهده.

- ربما يحتاج الأمر لبعض الشحم، اقترح "عاش".

- بماذا؟... لقد واجهتُ المشكلة نفسها العام المنصرم. حيث احتجتُ إلى هراوة ورافعة من أجل إزالة الصدأ عنها.

- هل أنت مضطر إلى ذلك؟

- حتى الشيطان لن يغمض له جفن في الداخل. الطقس كالمرجل. إني أحاول تهوية المكان.

وأخيراً كفّ بليس عن المتابعة، ووقف في مواجهة الرجلين.

كان "عاش" ينتظر تلك اللحظة بفارغ الصبر. فوقف بجلال وقال وقد غلبه التأثّر:

- أعلمني هارون أن كلبتك وضعت صغارها.

- وما الذي يَعنيه في الأمر، هو الآخر؟

- قال ذلك من دون سوء نيّة.

أخذ بليس يحدق تارة في وجه "عاش"، وأخرى في وجه الفتى الذي في

كنفه، وهو يترقّب تواطؤاً ما. ولكن بدا له حسب ما هو ظاهر، أنهما صادقان.

- منذ أن قدم علينا الكلب الأحمر، اشتكى بليس فجأة، لم تتوقف عن الولادات. ثم إن لون صغارها لم يكن مقتصراً على اللون الأحمر، لقد ولدت صغاراً من اللون الأسود، والرمادي، وصغاراً بلون حجر الدومينو... وعند قدوم الليل، تعود ثلة من الكلاب وتحوم حول سكني. إني بالكاد أمنع نفسي عن الصياح مع هذا السرب.

هز "عاش" رأسه، وهو مدرك للوضع؛ لقد رقّ قلبه. وأخذ يقلب الغبار بقدمه، وقال بصوت مرتجف:

- هل هي هنا؟

- إلى أين تريدها أن تذهب؟

- هل أستطيع رؤيتها؟

- لماذا؟ قال بليس حذراً.

- إني أحب الجراء.

تفرّس بليس بالموسيقار، ثم بجونيور ووجد أنهما مثيران للفضول، فجرأتهما في القدوم إليه دون سابق إنذار، وطرحهما عليه أسئلة حول موضوع لا يعنيهما، سبّب له الضيق. إنه بشكل عام لا يرتاح للزوار، سواء أعلموه مسبقاً أم لم يُعلموه، وسواء كانوا يحملون أنباءً جيدة أو سيئة. وعلى أي حال هو لا يعترف بزيارات المجاملة؛ فالزيارات بالنسبة له ليست سوى تطفّلاً، وأذىً، وانتهاكاً للحرمات، وضلالاً فعّالاً.

بليس نموذج للشخص المتكتّم. يعيش على هامش ما يدور من حوله. يعتقد "عاش" الذي يأنف من الذين يعيشون في عزلة، أنه إنسان متشبّث برأيه، غامض وكنود. لكن بليس في الواقع ليس كذلك، وإذا كان لا يقحم نفسه في حياة الآخرين، فذلك لأنه يريد أن يحمي حياته. فبمجرد أن يدقق أحدهم في نظرته الهاربة يكتشف أنه عانى الكثير في حياته؛ ففي وجهه الذي يشبه النمس، بصمة واضحة لمواقف متوالية تعكس خيبة أمل عاشها في الماضي، وذلك من أثر التجاعيد والندبات.

- ماذا تعني بـ "أحب الجراء"، قالها بلهجة المرتاب مثل سرطان البحر.

- تماماً مثل ما تعني: "أحب الجراء".

- نعم، ولكن لماذا اليوم بالتحديد؟

- لأن كلبتك ولدت صغارها بالأمس، وجئنا اليوم نشاهدهم عن كثب. أؤكد لك أن هذا كل ما في الأمر. لن نحاول اختطافهم، ولن نصيبهم بالعين، على كل حال ليس لي سوى عين واحدة، ولا يصل بصري إلى أبعد من أنفي.

- هل يترتب عليّ أن أصدقكم؟

- كلا، لست مضطراً لذلك... هل ستسمح لنا بمشاهد كلبتك أم لا؟ أنتَ هنا في بيتك، ولك مطلق الحرية في استقبالنا أو في طردنا. لن نجبرك على شيء. جئنا فقط لرؤية كلبتك، هذا كل ما في الأمر.

تردد بليس طويلاً قبل أن يشير بيده إلى صهريج خُلعَ بابُه.

- إنها خلف الصهريج.

أومأ "عاش" برأسه يشكره، وبشيء من المجاملة المفرطة، لمس بيده قبعته الوهمية، ثم أصلح سترته، وعدل رقبته والتف حول كوم الحديد بوقار.

كانت الكلبة تقبع هنا في بركة من الظل، وقد تجمّع صغارها على أثدائها. رفعت رأسها وانخفض حاجباها قليلاً على شكل إشارة المدّة.

جلس "عاش" القرفصاء أمامها، وقد تدفقت عاطفة الحنان عنده. أخذ يداعب فرو أحد الكلاب الصغيرة الذي رمى به الجوع القاتل جانباً، كما ألمّ بإخوته.

- يا لها من عائلة جميلة، قال "عاش".

- وتقولها! صاح بليس مغتاظاً.

نهض "عاش"، وتأمّل الكلبة وصغارها، ثم استدار نحو بليس، وبإيماءة نبيلة أعطاه الطرد.

- ما هذا؟ سأله بليس بتحفّظ.

- افتحه....

- آمل ألا ينفجر شيء في وجهي.

- هيا افتح.

تناول بليس الطرد بين أصابعه، وبالحيطة والحذر الذي يأخذه صانع الأسهم النارية الذي يلامس قنبلة حرفية، أقدم على حل الخيط بعد أن وجد الأمان في نظرة الموسيقار.

- سوط! صاح قائلاً.

- إنه رسن، قال "عاش" وقد غلبه الإعياء.

- رسن؟ ماذا أعمل به؟

- إنه هدية. لقد كان ملكاً لكلبي، وأنا اليوم أقدمه لك كهدية.

انتزع بليس قطعة الجلد، أدارها ثم قلبها، فاغتمّ "عاش" بشكل مهين من البلادة التي ارتسمت على وجهه، ومن النحول الذي كان في أصابع يديه، ومن التجويف الذي علا شفتيه.

قال له: لم أفهم.

- قلت لك إنه هدية، دمدم "عاش" وقد أزعجته اللامبالاة التي أبداها بليس.

- آه!..

بسط بليس قطعة الجلد المستطيلة، جذبها ثم هوى بها كالسوط - مما أثار حزن الموسيقار - ثم نظر إلى كلبته بشكل ارتيابي.

- لن ترضى أبداً بالرسن. إنها عزيزة النفس.

لم يعد "عاش" يحتمل أكثر. استدار على عقبيه وابتعد حانقاً.

كان على جونيور أن يركض خلفه كي يلحق به.

- أبله! فظ! متخلّف! من أهل الكهوف! عبّر الموسيقار بهذه الكلمات عن سخطه وهو يضرب الرمل بقدميه. رقته كانت أشبه برقة خنزير برّي!

أخذ جونيور هو الآخر يضرب الرمل بقدميه تعبيراً عن تضامنه، ودون أن يفهم سبب الغضب الأسود الذي استولى على الموسيقار، كان يصرخ:

- أبله! فظ! متخلّف!

- يا له من ناكر للجميل!

- يا له من ناكر للجميل!

- لم يكترث حتى لقول شكراً.

- آه! إذا كان الأمر يتعلق بشكر بليس فلك أن تنتظر ما شئت.. ما الذي جعلك تقدّم له الرسن كهدية. إنه جميل جداً.

قال "عاش" بلهجة تملؤها المرارة:

- إنه العُرْف يا جونيور. ثم إننا لم نعد نشهد ولادات عندنا.

***

الفصل الخامس

بدا "عاش" مشغول البال.

تسمّرت الشمس في الأفق، وخيّم السكون على الجسر العائم، وغابت صيحات الإنذار التي اعتاد نيغوس إطلاقها في مثل هذه الساعة من كل يوم، واختفت الأشباح المتكاسلة الشبيهة بخيالات الظل. وغرق المكان في صمت مطبق.

حدّق "عاش" عبثاً في الجوار، لكنه لم يلمح أي إشارة مطمئنة، فقال:

- إن الوضع غير طبيعي.

- ما الذي يجري، سأل جونيور من داخل الشاحنة.

- يبدو أن صِبْية الجسر العائم هجروا المكان.

- ربما هم نائمون.

- ليس في مثل هذه الساعة.

فجأة، لمح جونيور فم الفأرة الصغير، المغزلي الشكل، وقد ظهر من أسفل موقد المازوت. تمدّد على فراشه ليشاهد الحيوان الذي سارع إلى الاختفاء، مُسقِطاً أثناء انسحابه عبوة قديمة وفارغة يستخدمها الموسيقار بدل قدح.

مشى "عاش" حتى بلغ الحاجز الصخري، وهناك تسلق الأكمة، ووضع يده لوقاية وجهه من الشمس وأخذ يراقب الجسر العائم الذي بات يشبه منطقة منكوبة.

- الوضع غير طبيعي، كرر قائلاً وقد ازداد قلقه.

خرجت ماما صباح هذا اليوم من خلف مستودع القمامة، وهو المكان الذي اعتادت أن تعتزل الناس فيه، بينما تقوقع ميموزا، صاحبها القديم في العربة ذات الدولاب الوحيد. وكان لا يصحو أبداً من الثمالة، مما يجعله يتغوّط على نفسه باستمرار، فتضطر ماما إلى نقله إلى الشاطئ وتبادر إلى تنظيفه، فتقذف به في البحر وتحركه في كل الاتجاهات، حتى إنها تكاد تُغرقه في بعض الأحيان، ثم تسحبه من قدميه على الرمل وتمدّده فوق الصخور، لتأتي وتأخذه

في ساعة متأخرة من بعد الظهر، حيث يكون قد جف بتأثير أشعة الشمس.

بدا كل شيء هادئاً على الشاطئ فيما عدا مناورة ماما. فكر "عاش" لوهلة أن يذهب إليها ليسألها عما يجري، لكنه خشي من إزعاجها. فهي كقطعة السكر، ما أن تضعها في كوب من الماء حتى تذوب، غير أنها تُؤوِّل الكلام حسب فهمها. فإذا سألها أحدهم عن التوقيت تستشف من السؤال تلميحاً مسيئاً، ولا يستطيع أحد أن يوقفها. لذا يدعوها "عاش" "صندوق المصائب"، ووجد أن الامتناع عن توجيه الكلام إليها هو خير طريقة لإبقائها صامتة.

- ما رأيك لو أخرجنا خيمتنا إلى الباحة؟ اقترح جونيور على "عاش"، سوف نغرز مرافقنا في الرمل ونحرك أصابع أرجلنا في الشمس...

- لكن الليل سيسدل أجنحته بعد قليل.

- هذا لا يمنع.

- بلا مزاح! كيف تريد تحريك أصابع قدميك في الشمس في سواد الليل يا جونيور؟

ضرب جونيور جبهته بباطن يده وقال:

- هذا صحيح، كم أنا مغفل.

- لستَ مغفلاً يا جونيور، لكنك تنسى أن تفكر قبل أن تتكلم.

أعرب جونيور عن موافقته دون أن ينبس ببنت شفة.

- إنك على حق... فكيف تعمل لكي تفكر في اللحظة نفسها التي تتكلم فيها؟ أنا لم أتوصل أبداً إلى ذلك.

- يأتي هذا مع تقدم العمر... هل تستطيع أن تسدي لي صنيعاً؟

- الأمر منوط بـ ...

- أريدك أن تذهب إلى الباشا وتلقي نظرة خاطفة.

انفجر جونيور ضاحكاً وقال:

- لن تطلب مني أن أمشي هذه المرة يا "عاش".

- الأمر جدّي. هناك أمور مريبة تجري على الجسر العائم.

جلس جونيور على مؤخرته وبدا أنه يفهم وهو يستعين بأصابعه. كان حاجباه يتحركان صعوداً وهبوطاً من شدة التركيز. لقد بات حذراً منذ أن قبض عليه متلبساً بقضية "اشتباك الأيدي" - والتي لم يتوصّل إلى حل لغزها بعد.

- انتظر، انتظر، قال جونيور، يتراءى لي أن شيئاً ما هناك غير صحيح. تحظّر عليّ مخالطة هؤلاء المنافقين، والآن تريدني أن أذهب لرؤية ما الذي يجري عندهم.

وقف "عاش" قبالة الباب. ولاحظ جونيور بعض القسوة في عين الموسيقار السليمة... فسارع إلى لبس حذائه العتيق رغماً عنه، وخرج من الشاحنة وهو يحاذر الاقتراب من الموسيقار. ثم احتجّ قائلاً:

- إن الأمر غريب، ترمي لي بالطعم وعندما لا أقع بالفخ، تُكرهني على العمل.

نزل جونيور الأكمة بخطى متسارعة وصغيرة، وهو على يقين أن الموسيقار سينفجر ضاحكاً بعد رحيله. لكن "عاش" لم ينفجر ضاحكاً. لقد وصل جونيور إلى الحاجز الصخري دون أن يناديه أحد. تابع سيره ولم يقرر أن يرفع رأسه إلّا حين بات في الطرف الآخر من مستودع القُمامة. وعندما وصل بمحاذاة كوخ ماما، تنبّه إلى أنه نسي الأسباب التي قادته إلى هذا الجانب من الأرض المقفرة. كانت ماما تعنّف صديقها القديم بشدة، وعندما لمحت جونيور، دخلت بسرعة إلى بيتها لتوحي إلى الدخيل أنها لن تستقبل أحداً. أما ميموزا فكان قابعاً على مقربة من الكوخ كولدٍ صغير يرتدي أسمالاً.

تذكر جونيور أن عليه الذهاب إلى الجسر العائم ليشاهد المؤامرة التي تحبك هناك، عاد أدراجه باتجاه الشاطئ، وسلك طريقاً مختصراً عبر الصخور القزمة المتآكلة من أثر تكسّر الأمواج عليها. كان الهواء يزمجر كسربٍ حزين من الوحوش المفترسة. فاضطر جونيور أن يتمسّك بالحجارة كي لا تنزلق قدماه.

وانتهى به الأمر إلى خليج صغير، وهناك رأى كلوفيس قد اعتلى حصاة ملساء وجلس يراقب هارون الأصم وهو يتخبّط في الأمواج المتلاطمة. كانت الأمواج تتلاعب بهذا الأخير بضراوة فريدة. لم يكن يُرى منه سوى رأسه

الأسود من خلال رغوة الزبد.

- ولكنه يغرق! صاح جونيور وهو يرفع يديه إلى صدغيه تعبيراً عن ذعره.

هز كلوفيس كتفيه وقد اتكأ على ركبتيه كالغول الذي انكفأ على وليمة، وبرّر قائلاً بلهجة رتيبة:

- لقد حذرتُه من الذهاب.

- ما الذي يعمله في الماء؟

- أراد استعادة قنافذ البحر، فقلت له إنّها ليست بالفكرة الجيدة، فالعاصفة كانت على وشك أن تهب، فلم يعرني أي اهتمام.

حاول هارون عبثاً الوصول إلى الصخرة الكبيرة قرب الشاطئ، فجرفته زوبعة الأمواج إلى الأعماق. وبين الفينة والأخرى، كانت الأمواج عند اصطدامها بحاجز صخري ترتد وتقذف به على الصخور وسط الزبد الأبيض، وقبل أن يجد هذا الشيطان المسكين دعامة يستند إليها ليصل إلى الأرض الصلبة، كانت الأمواج الهائجة تنكفئ على نفسها وترمي به مجدداً في أعماقها.

جلس جونيور إلى جانب العملاق، وأخذا معاً يشاهدان غرق جارهما، وكأن الحدث أصبح أمراً مقضياً.

- ألا تعتقد أنه يتوجب علينا إخراجه من هنا؟ سأل جونيور.

- إني أخشى من الماء، قالها كلوفيس بكل بساطة.

- وأنا أيضاً... هل بدأتْ عملية الغرق منذ فترة طويلة؟

- نعم، منذ ساعة تقريباً. عِلماً أنه يعلم جيداً أنه لن يستطيع الصمود في وجه هذا البحر الهائج. إنه يقاوم بدل أن يضع حداً لهذا. آمل ألا نضطر للبقاء هنا طيلة الليل. فلديّ عمل آخر.

- أعتقد أنه علينا طلب المساعدة.

- هذا لن يجدي نفعاً. لن يصغي لأحد، ثم إن كل الصبية ذهبوا للبحث عن بيبو.

- وما الذي حدث لبيبو؟

- لم يرجع من المدينة.

- المدينة مكان لا يناسبنا.

- يعتقد الباشا أنه حصلت مصيبة لبيبو، لذا ذهبوا كلهم للبحث عنه. لم يبقَ سوى نيغوس على الجسر العائم، إذ إنه نُصِح بضرورة وجود أحدهم لحراسة القاعدة. لقد نصب كميناً هناك في الأعلى. كاد أن يقتلني لأنني لم كن أعرف كلمة السر.

أومأ جونيور برأسه، وعادا كلاهما إلى مراقبة المحنة التي يمر بها هارون: لقد كفّ عن المقاومة من شدة الإرهاق الذي أعياه.

- لِمَ تتكرر تصرفات هارون التي تنم عن غبائه؟ سأل جونيور.

لاذ كلوفيس بالصمت، وبسط يديه البدينتين ذات الشعر الكثيف على ركبتيه، قلّص كتفيه وحدّق بالغريق بطول أناة، وقرر ألا يتلفّظ ببنت شفة حتى يغيب هارون عن سطح الأمواج.

وفجأة، وصلت موجة من بعيد أكبر من سابقاتها، تدور بشكل مدهش، فهيمنت على كامل البحر، غطّت الأفق وأخذت تتكسّر بثقل على الشاطئ، وكأنها سورٌ ضخم متحرك لامتناهٍ، قرر أن يمسح كل شيء في طريقه. أخذت تعلو وتعلو وقد امتلأت حقداً وضلالاً. وبسرعة هائلة، ترامت على بعد باع عند خليج صغير، وخارت بحالة تستدعي الشفقة، شبيهة بجبل يلد فأرة. وفي قفزة كبرياء أخيرة، وفي محاولة لاستعادة السيطرة أمسكت في طريقها بهارون، ورفعته عالياً جداً لدرجة أنه أفلت من قبضتها وتهاوى على الصخور. وهنا أصيبت بخيبة أمل، فانسحبت وبقي الغريق معلقاً بالصخرة الكبيرة قرب الشاطئ، معتوهاً، محطماً ودون حراك. ثم عادت أمواج أخرى غاضبة لتأخذه، فنضحت في التعرجات ولم تفلح إلّا برشه بالماء في مناطق من جسده.

- حتى البحر لفظه، قالها كلوفيس باشمئزاز وهو ينهض.

وعلى هذا، صعد مجدداً فوق التل وتوارى عن الأنظار.

بقي جونيور وحيداً، فاستمر في مراقبة هارون الذي بات بلا حراك، وعندما تذكّر أن الليل سيخيم عما قليل، أسرع إلى لقاء "عاش" الذي لا بدّ أن صبره

قد نفد.

***

الفصل السادس

لم يسبق لأحد أن رأى الباشا مقطّب الوجه، خائر القوى مثل هذا اليوم. لقد تحول إلى كتلة أشلاء بشرية، كان فيما مضى ذلك الجندي الهرم، الكثير الصّخب، الذي يفوق صياحه عصف النوء. يهيأ للذي يراه أن روحه هجرت جسده إلى مكانٍ ناء، مخلفة وراءها شخصاً فارغاً، يقوم بحركات مضحكة. إنه جالس على كرسي عربة الموتى التي يتخذها كعرش له. حتى الذباب لم يفلح في انتزاع ردود أفعاله. بدا منهار القوى، باهت النظرات، عابس الوجه، وقد تسمّرت عيناه في الأفق البعيد.

راح الكل يبحث عن بيبو، ولكن باءت كل المحاولات بالفشل.

توقف البحث عند حدود البلدة اجتناباً لمداهمة الشرطة للمارة، فمن يتعدّى خط الحدود الفاصل لا يعود منها أبداً، علماً أنه لم يُوفّر جهداً أو سبيلاً في البحث عن المفقود. تم سؤال جامعي النفايات، والعرّافات، وأصحاب العملات الورقية الغارقين في الظلمات، والأولاد المنتشرين في طرقات البلد، كما تمّ التفتيش داخل المباني القروية التي تستخدم لأغراض مشبوهة، وفي الأنقاض، وفي مستودعات النفايات، وفي البيوت القذرة المهجورة التي يرتادها المشرّدون والأشقياء الهاربون من المنفى : لا يوجد أي أثر لبيبو.

يبدو أن الزمن توقّف على الجسر العائم.

مضى يومان والباشا ثابت كالطوطم، يحاول كظم غيظه. واحتارت الجماعة في أمرها، وأخذت تنتشر حول رئيسها في تردّد وحيرة. وحده نيغوس، انفرد بحراسة التابوت الذي يستخدمه كمحرس له في النهار وفراش في الليل، بينما امتنع الباقون عن القيام بأي حركة أو أي عمل، يرقبون شارة من رئيسهم ليستعيدوا أنفاسهم بحرّية.

احتّل كلوفيس صخرة كبيرة، بجوار القصر، وأخذ يتفحّص أظافره تارة، وخطوط يديه أخرى، والارتباك بادٍ على وجهه. إنه غير قلق لفرار بيبو، فهو في واقع الأمر لا يجد أي فائدة من وجوده أو أهمية لغيابه، لكن ما يزعجه هو حزن الباشا. رغم أنه يتضور جوعاً وعطشاً، لم يفكر ولا للحظة أن يضع شيئاً

في فمه، لأنه سيشعر أنه يخلّ بالنظام بشكل خطير.

أما الأخوان الانطوائيان "زوج"، فقد شعرا بالسأم، فافترشا ظلهما بعناية فائقة عند قدمي كلوفيس، وقد غطى اللعاب فمهما، وشحب وجههما. لا أحد يعرف لهما عمراً أو تاريخاً، لقد تقدّم بهما العمر، وبدا عليهما الإعياء والسقم. إنهما أول مَن وصل إلى هذه الأرض المقفرة، لذلك لا أحد يدري من أي كوكب ينحدران. نادراً ما يتكلمان، ويكتفيان بالفتات الذي يخلفه زملاؤهما في المحن بعد الطعام، وينامان ملتصقين بعضهما ببعض كالقطط السيامية. لقد تبناهما الباشا لأنهما لا يسبّبان له الإزعاج، فهو يحب الغموض الذي يحيط بهاتين المومياءتين والتطابق المدهش لردود أفعالهما أمام المحن التي تحصل لهما. فلو أصابت أحدهما حكة لأدمى الآخر نفسه بسببها...

وفي الجانب الأيسر من القصر، أمسك "ديب"، ذلك الرجل الهزيل ذو الأنف المعقوف، وجهه بين بيديه وتظاهر بأنه مفجوع. لكنه في حقيقة الأمر، كان يراقب الرئيس خلسة من بين تفاريج أصابعه. كلما لمع وميض الحزن في عيني رئيسه، كان يتململ وهو يتظاهر بالألم ليوحي للآخرين أنه متأثر، في حين أنهم يعرفون جيداً أن القلب الذي يحمله بين ثناياه لا يتجاوز قلب عقرب؛ مع ذلك، لم يمنعه ذلك من أن يبدي أطناناً من التأثر. قبالة ديب، كان إيتسيتيرا – الذي يلقبونه أيضاً " بالرافعة" لأنه كان بذراع واحدة – يجتر الاشمئزاز الذي يوحيه له ذلك المخادع. عبثاً حاول أن يقنعه سراً بمزج الخمر ببعض الماء، ولكن ديب يرفض الامتثال.

أما أينشتاين فكان يقف منعزلاً خلف الدغل، فريسة للأفكار السوداء. لقد كدّره اليأس الذي كان يمر فيه الباشا، هو الذي اعتاد في مثل هذه الساعة، أن يعبث في القمامة بحثاً عن العقاقير الفاسدة التي يجتهد في تكريرها داخل كهفه الذي حوّله إلى مختبر. كان أينشتاين كيميائياً متحمساً، سميناً، قصير القامة، وكان شعره واقفاً في قمة رأسه، يمضي غالبية وقته في تحضير الإكسير، منحنياً من الصباح حتى المساء فوق الموقد الفائر. لقد وضع في خرجه الذي لا يفارقه أبداً، مئات الوريقات التي خطها برموز لا تقرأ وسط القوارير والأنابيب القذرة، والتي يدّعي أنها وصفات مدهشة، في الوقت الذي تسبّبت فيه تلك العقاقير بمقتل عدد كبير من الكلاب الضالّة.

وهناك آخرون، فئة من المشردين عابري السبيل، وهي مجموعة من الأشباح الرمادية اللون، الذين لا يعلق اسمهم في الذاكرة، ولا يُعرف لهم عدد. دخلاء متجولون، يجرجرون فشلهم بين الأراضي المقفرة والسُّبل المطروقة؛ تعلّموا كيف يبتعدون، وكيف يتلاشون في الطبيعة دون إثارة تساؤلات من حولهم. يأتون إلى هنا هرباً من الوحدة، بحثاً عن بعض الدفء في هذا العالم، على أمل أن تعيد إليهم نظرة حانية شيئاً من الرؤية. إنهم على علم أن هناك شخصاً قد هرب يدعى بيبو، لكنهم لا يدرون الموقف الذي ينبغي لهم اتخاذه، وهم يشعرون أن تعاطفهم لن يجدي نفعاً لأن أحداً لا يهتم لشأنهم.

الكل يحبس أنفاسه عندما يتحرك الباشا، حيث إن الخوف الذي يزرعه في النفوس لا يعادله شيء. مع ذلك، عندما ينظر إليه أحدهم عن كثب يكتشف أنه لا يساوي شيئاً. إنه طائش كبير، هزيل، يعيقه فمه الأدرد، فحّاش، غطى جسدِه الجاف بأشكال من الوشم المثير للكوابيس. لو لم يكن معروفاً لخطر على بال أي سِكِّير أن يشبعه ضرباً، مجرد أن يثبت لنفسه أنه ليس ذلك الإنسان الساقط. لكن المظاهر خدّاعة. إنه يجسّد الخطر، وذلك من خلال القصص التي يرويها، على الرغم من مظهره الذي يوحي بأنه جثة مؤجلة. فكيف لا يساورنا الشك حول حقيقته؟ يكفي أن تحدق في عينيه لتكتشف المزيج المدمِّر الذي يتولد في أعماق أعماقه. نظرته كفيلة بأن تُدخل هرقل الجبار تحت الأرض، إنها نظرة جليدية وثاقبة لا يستطيع أن يتحملها أحد أكثر من ثانيتين متتاليتين. أما سيرته فهو الذي رواها، نعرفها من خلاله. في أوقاته المهدورة، وعندما يهدأ مزاجه الذي لا يُطاق، كان يشعل ناراً في المخيّم ويجمع رجال "بلاطه " ليروي لهم سنوات سجنه الطويلة، والمشاجرات المتواصلة التي كان يفتعلها في الماضي، عندما كان بعض المتهوّرين يبحثون عن عيب فيه ليس ذا أهمية، والأفعال الوحشية المستهجنة التي كان يُنزلها بالذين لا يعجبه مظهرهم. كانت عيناه تلمعان بشكل مخيف عندما يسرد شريط إساءاته، والتي غالباً ما تكون منفِّرة لشدة تجاوزها للمعقول. إنه تسبب حسب ظنه في تكدير عالمٍ كاملٍ من اللصوص، وزرع الذعر داخل السجون الأكثر انحطاطاً. يجب أن نصغي إليه وهو يروي بالتفصيل كيف كان أعداؤه المهزومون يرتمون عند قدميه ملتمسين عفوه، وكيف كان يقطّعهم إرباً بطرف المطواة التي كان يحملها حتى يلفظوا أنفاسهم

الأخيرة، وهم شبه سعداء لخلاصهم. وبينما يروي جرائمه والعقوبات التي ينزلها بالآخرين، يلوذ أصحابه بصمت عميق، حتى يُخيّل إليك أنك تسمع رنين الحصى في أحشائهم.

نيغوس هو الوحيد الذي بقي ثابتاً غير مضطرب من بين هؤلاء، ولم يغادر محرسه. لم يسبق له أن صدّق الصلف المفرقع لهذا الخَبَل الذي يظن نفسه قائداً عظيماً، والذي نصّب نفسه ملكاً على هذه الأرض المقفرة لغياب المنافسين. يعتقد نيغوس شخصياً أن الباشا ليس سوى مخرّبٍ للعقول من المستوى الوضيع، مضلِّل غليظٍ لمغفلين فزعين، صخّابٍ موهوبٍ لا يمكن تصديقه، فكلامه مزوّزٌ كوعود الانتخابات.

يتحرك الباشا، وقلبه مفعم بالغم كالإعصار. أخذ يتفرّس بالأخوين زوج اللذين تجمدا في مكانهما من شدة الضيق، ثم انتقل بصره إلى كلوفيس الذي انحنى ظهره فجأة، وأخيراً حدّق بإيتسيتيرا الذي اصطكت أسنانه، ولا يدري كيف يحك ذراعه الموهوم الذي أخذ يرعاه مجدداً.

بعد أن رفع الباشا نظره إلى السماء علّه يجد العون، ضرب باطن يديه على ركبتيه، مما كان له دويّ الانفجار فى هذا الصمت الفلكي للرصيف. ثم تأوه قائلاً:

- لماذا يتصرّف معي بهذه الطريقة؟

كان لسؤاله أثر الصفعة على الرؤوس المطأطئة، ولكن لم يجد مَن يجيب. لقد تعلموا ألا يتلقفوا العصا الطويلة التي يلوح بها في الهواء منذ أن وجدوا أنفسهم تحت إمرته. فهو مستعد لتفسير أي تصرف رحيم على أنه من العصيان.

- لماذا؟ زعق الباشا بينما ارتجف وجهه من شدة الحنق الذي يأكله من الداخل.

لكن أحداً لم يتحرك، فظن ديب أن عليه اغتنام فرصة عمره لكسب تقدير الرئيس. تنحنح وفتش من حوله عن نظرة مؤيدة، فلم يجد سوى رؤوس مطأطئة، ووجوه كامدة، ماطل قبل أن يتنبه أنه لم يعد باستطاعته أن يتراجع بعد أن شد الأنظار إليه. أخيراً، حزم أمره وتمتم قائلاً:

- بيبو ليس سوى ناكر للجميل أيها الرئيس، بل إنه لا يستحق أن يكون لك مبصقة.

هنا توسعت فتحتا أنف الباشا استنكاراً. أخذ يحملق بالثرثار وكأنه يتنبّه لوجوده لأول مرة. كانت جوزة حلقومه تتحرك في رقبته إلى الأعلى وإلى الأسفل، كأنها إهانة لا يمكن السكوت عنها.

- ماذا قلت بشأن بيبو أيها الحقير؟

- .....

- قلت إنه ناكر للجميل؟ بيبو الذي يخصّني لا يساوي مبصقة؟ قلت ذلك عن بيبو الذي يخصني أنا؟

- أما أنا فلن أدعك تسقط، قالها ديب على عجل، وهو يتصبب عرقاً. أنت أكثر من أبٍ بالنسبة لي. لن يكون لحياتي الحقيرة أي معنى إذا أعرضت عني أيها الرئيس. عندما أصلي فإني أدعو لك...

- اصمت! أرعد الباشا وقد جحظت عيناه. هل استدعيتك؟ هل ناديتك؟

تضاءل ديب حتى بدا مثل كومة من الورق الميت في مهب الريح

- أنا...

- اصمت! لا أهتم لدعائك. أنت لا شيء! أنت نكرة! ليس لك أي وجود.

انكمش ديب على نفسه وقد فقد السيطرة على أحشائه. حاول أن يستجر عطف إيتسيتيرا عليه من مخبئه الافتراضي، على أمل أن يتعلق بشيء ما، بينما تخلى الجميع عنه، وتركوه لمصيره بين يدي الباشا الحانق. فرمقه إيتسيتيرا بابتسامة ازدراء، وقد اغتبط لرؤيته يقع في الفخ الذي نصبه لغيره.

أطبق الباشا قبضته المشدودة داخل القفاز السرّاجي ليوحي إلى الثرثار أنه يستطيع سحقه كالبيضة النيئة، ثم نظر طويلاً باحتقار إلى بقية أفراد العصابة الذين تسمروا في أماكنهم من الخوف الذي انتابهم. كانت وجنته تهتز من شدة الغضب. وعندما تنبّه إلى أن أصحابه أوشكوا أن يموتوا خنقاً لأنهم حبسوا أنفاسهم، نهض وابتعد.

انتظر إيتسيتيرا ريثما يبتعد الرئيس وعاد مجدداً ينظر إلى ديب باشمئزاز.

- ماذا هنالك؟ تمتم هذا الأخير وقد قلب شفتيه فظهرت أسنانه المتعفنة.

- مشكلتك يا ديب أن حياتك لا تساوي مسماراً، رغم ذلك تحاول شغل حيزٍ كبيرٍ.

- ماذا فعلتُ؟

- إنك تشرب الهواء الذي نتنفس.

- الهواء الموجود يكفي لكل الناس.

- ولكنه يخفّ عندما تفتح خَطمك.

هز ديب كتفيه، وتحصن خلف تكشيرة عَبوس.

أخذ الباشا يسدّد لكمات في الفراغ، ويقذف الحصى بقدميه، مثيراً الغبار، وأوحى للجميع بحركة من يده أنه يخنق عدداً كبيراً من الرقاب غير المرئية، يطيح بلوح ثخين من الخشب كان يعترض طريقه. كان فكاه يدوران في وجهه كالبكرات. وفي النهاية انكفأ إلى قصرِه وقد شعر أنه يستهلك قواه بدون فائدة. وأمام الفراش الذي يشاركه فيه بيبوَ، والذي بدا له فجأة واسعاً جداً، وفارغاً كالأرض المقفرة، انتابه الحزن مجدداً وشعر أنه يتنسّل كالنسيج. أخذ يتأمل الأشياء الجميلة الموجودة داخل الخيمة، والتحف والفضيات المشوهة التي وجدها رجاله في القمامة وقدموها له كعربون ولاء، والسجاد المتعفن الذي يغطي الأرضية، واللوحات المقطعة المعلقة على الستائر، والأريكة القديمة التي كان يتمدّد عليها بينما يهيئ له بيبو الطعام... أخذ وجهه بين يديه وقد أنهكه الألم، جلس على ركبتيه، وانفجر باكياً بوجهه القبيح.

- بيبووووووووو!

انصب زئيره على الأرض المقفرة كالكارثة، مسبباً الفزع للناس والأشياء حتى البعيدين منهم على مدى فراسخ.

***

الفصل السابع

- قل لي ما الأخبار؟ سأل "عاش " جونيور الذي وصل لتوّه من الجسر العائم.

لوّح جونيور من بعيد بمحارة كبيرة، وقد انفرجت أساريره.

- لقد التقطتها عن الشاطئ. تستطيع أن تسمع صوت البحر عندما تضعها على أذنك...

نخر "عاش " بقوة جعلت شعيرات أنفه تهتز.

- لقد أرسلتك لتأتيني بالأخبار!

- أي أخبار؟

- الباشا...

- آه!... أمضى الباشا ساعات طويلة مهموماً تحت الشمس، ثم انسحب إلى حفرته. ألم تسمع صراخه؟... عندما سمع ديب يذكر بيبو بسوء كاد أن يأكله نيئاً.

تأمل "عاش " الخيالات التي تجوب الجسر العائم، ثم عاد إلى جونيور، وحك رأسه من الأعلى.

- هذا ليس جيداً، تمتم قائلاً. هذه القصة سوف تعقّد حياة الناس. عندما يكون الباشا مهموماً فإنه يسارع في التخلّص من المشكلة من أجله ومن أجل الآخرين. هل توصّلت إلى معرفة سبب رحيل بيبو؟

- قلت لك إنَّ الباشا لزم الصمت كالأحمق، والصبية من حوله كذلك. كانت وجوههم كئيبة كيوم شنق إبراهيم نفسه.

- لم تكن قد وُلدَت بعد عندما قُتل إبراهيم نفسه.

- نعم، ولكنك رويتَ لي ما حدث... هل أستطيع أن أطرح عليك سؤالاً، يا "عاش"؟ لماذا يتوجب على ديب أن يعود بها؟

نفخ "عاش " وجنتيه، وقد تعب من هذا الكلام الهراء الذي لا رابط له.

- هكذا الإنسانية يا جونيور. لكلٍ رسالته.

جلس "عاش " على سلمّ الشاحنة الصغير، وأخذ ذقنه بين إبهامه وسبّابته محاولاً فهم الموقف السائد على الجسر العائم الذي بات يقلقه. ففي آخر مرة، فرقع سلك فأضرم النار في المزبلة، وأجبر ديب على العوم في البحر الهائج. لقد أصبح فظاً جداً لدرجة جعلت المشردين الرحّل يلملمون بؤسهم وسط الزحام، ويرحلون على الفور دون أن يلتفتوا وراءهم. ومضت أسابيع، ولم يجرؤ أحد على الاقتراب من الأرض المقفرة، سواء على مستوى الحجيج أو المشردين أو الملعونين، وكأن الأرض هُجرت بأكملها.

- ماذا لو أخرجنا خيمتنا الصفراء، يا "عاش"؟

- هذا ليس بالوقت المناسب، أجاب الموسيقار بتنهيدة.....

- ومتى سيكون الوقت مناسباً، يا "عاش "؟ لن أنتظر حتى نهاية العالم. لن أعيش سوى مرة واحدة.

- همّك الوحيد هو التسلية.

- أنت الذي قلت لي أن أستفيد من كل لحظة. لماذا تقلب كلامك كما تقلب سترتك، يا "عاش"؟ أنت تشوّشني. لم أعد أعرف كيف أفكر....

- هذا يكفي!

عندما سمع لهجة الموسيقار الحاسمة، أدرك جونيور أن عليه أن يبتعد عن المكان. فوضع محارته على برميل مسطح في عرض الباحة، ومسح يديه بعناية بكنزته الصوفية الملطّخة بالشحم، وأحنى رأسه علامة على استسلامه.

- لا يجدر بك أن تلهيني، قال له "عاش" ليسترضيه. الأمر جدّي للغاية. فالباشا يشكل لنا مشكلة كبيرة، ويجب البحث عن فرضيات وحلول.

انكمش جونيور على نفسه لشعوره بالإهانة. وظهرت فقرات عنقه بوضوح. وأخذ يرسم أقواساً صغيرة على الرمل بطرف حذائه. فاستسلم "عاش" وقال :

- موافق. سأعمل على إخراج الخيمة الصفراء.

- لستَ مضطراً لذلك، تمتم جونيور.

- بلى، إنني أجدني مضطراً لذلك. إنك عندما تراودك فكرة ما، تفضل أن

يُضرب عنقك على ألا تعود عنها.

لقد تأخر الوقت.

تمدّد "عاش" وجونيور فوق الحصير في الباحة بالقرب من الخيمة الصفراء، بينما أرسل البدر أنواره فوق مستودع النفايات. وخيّم السكون على الشاطئ، فمنذ أن توقّفت ماما عن تعنيف صاحبها، لم يعد يسمع سوى هدير الأمواج وهي تضرب الشاطئ.

- لماذا لم تنم بعد يا جونيور؟ سأله "عاش " وهو ينتظر مَن هو في كنفه حتى ينام لكي يتسنى له التفكير بذهن صافٍ بالخطوات التي عليه الشروع فيها من أجل رد الباشا إلى رشده. لقد كان لك ما أردت : أن ننام في العراء، ها قد تأخر الوقت ولم تزل مستيقظاً. هل هناك شيء ما يسبب لك القلق؟

رسم جونيور تكشيرة معقدة وكان مستلقياً على ظهره، شابكاً يديه على بطنه، مستقبلاً السماء بوجهه، وقال :

- إنني أعدّ النجوم.

- عمرك كله لن يفي بالغرض.

عدّل جونيور وضعيته، واستند على رسغه قبالة الموسيقار.

- أخبرني بليس أن عدد النجوم في السماء يعادل عدد حبات الرمل على الشاطئ.

- بليس أعجز من أن يعد إلى الرقم مئة. ولا يعرف ما هو المليار.

- هل حقاً يوجد نجمة لكل شخص في السماء؟

- على كل حال، لا يوجد من هو أهل لمعرفة نجمه... أهذا هو الأمر الذي يمنعك من النوم؟

- ليس تماماً. لا أشعر بالنعاس، هذا كل ما في الأمر.

لم يقتنع "عاش" بردّه. نهض وذهب ليتبوّل في الدغل. ولدى عودته، كان جونيور لا يزال متكئاً على رسغه، وبدل العينين رأى برغوثين خاليَين من الحياة. لا شك أن هذا الساذج يتساءل حول مواضيع عدة ولا يجد الإجابة عليها، لقد بدا ذلك في جبهته المقطبة. فوجهُ جونيور يشبه آلة تسجيل

الزلازل، يعكس ما يدور في خلده، ولم تكن أساريره تنبئ بالخير هذه الليلة.

- يبدو عليك الحزن أيها الفتى الصغير.

جلس جونيور على مؤخرته، وضرب كفاً بكف ليتخلّص من الرمل الذي علق به. أخذ نَفَساً عميقاً، ودون أن يجرؤ على النظر في وجه من يرعاه، بدرت منه كلمات :

- ماذا لو استيقظتُ ذات صباح ولم أجدكَ إلى جانبي، يا "عاش"؟

- من أين تأتي بهذا الهراء؟ إنك تساوي الكثير لي، أكثر من نجوم السماء، وأكثر مما في الوجود. حتى أثناء نومي، أنت لا تفارق أحلامي.

شعر جونيور بالخيبة وأخذ يفتل أصابعه.

- إنني لا أفهم لِمَ ذهب بيبو، أقرّ قائلاً. لقد كانا لا يفترقان، هو والباشا. ثم رحل أحدهما، وبقي الآخر حائراً، رغم أن الباشا رجل صلب، حتى إن الهزة الأرضية لا تنال منه مهما بلغت قوتها. وعندما رأيتُ الحال الذي آل إليه بعد رحيل بيبو، تساءلتُ ما الذي سيحصل لي لو تخليتَ عني، أنا الذي لا أساوي شيئاً.

انفطر قلب "عاش " لدى سماعه هذه الكلمات، فسارع وجثا على ركبتيه أمام مَن هو في كنفه وأخذ معصميه بين يديه.

- ربما كان الباشا وبيبو لا يفترقان، ولكنهما كانا اثنين يا جونيور. أما نحن الاثنان فالأمر مختلف، إننا روح واحدة في جسدين. هل سبق أن رأيت جسداً ينفصل عن روحه ويستمر في الحياة؟ فلتعلم أن هذا يشبه وضعنا. لقد خُلقنا لنبقى معاً حتى الممات. اعلم يا جونيور أنه مهما حصل فلن يأتي ذلك اليوم الذي تفتقدني فيه، لأنني سأسهر على راحتك كأنك حدقة عيني. إنك تعوّضني ما سلبه مني القدر. أنت نصيبي الثاني والأخير في هذه الحياة. وليس في نيتي أن أخفق هذه المرة.

- إنك تؤلمني في معصميّ يا "عاش ".

- هذا دليل صدقي معك.

- حسناً إنني أصدقك. هل أستطيع أن أستعيد يديّ الآن؟

أفرج عنه "عاش " ولكنه لا يزال يحيطه بحنان متزايد.

- إذا كنت تثق بي، فعليك أن تطرد هذه الأفكار المجنونة، وتحاول أن تنام.

بادر جونيور إلى تمسيد معصميه من الألم قبل أن يخلد إلى النوم. أخذ يتأمل قبة السماء وعاد جبينه أملس بينما ظهرت ابتسامة شاحبة على شفتيه، قرأ فيها "عاش" علامة هدوء البال، وزال عنه الكدر. ذهب إلى العربة ليحضر البانجو ويعود إلى جانب مَن هو في كنفه الذي تغيّرت نظرته إلى السماء. لقد كانت إحدى النجوم تلمع أكثر من الباقي، وقّرر جونيور أنها تلبس حلّتها لأجله هو فقط.

- ما رأيك لو غنيتُ لك "أسطورة جونيور؟"... اقترح عليه الموسيقار وهو يداعب حبال البانجو؟

- لقد سبق وغنيتَها لي مئة مرة.

- إننا نتناول الطعام في كل يوم، أليس كذلك؟

- عما قريب سأحفظها عن ظهر قلب، إني أحذرك.

- هذه ليست مشكلة.

تظاهر جونيور بالتردّد، ثم أعلن موافقته وقد لان جانبه:

- موافق، ولكن اختصر من فضلك.

شعر "عاش " بالارتياح وقد انفرجت أساريره وبدأ يغني وهو يداعب حبال البانجو بانسجام تام بدا من خلاله أن الصمت قد تسمّر.

"ليس لجونيور عائلة، كما أن ليس له مركز اجتماعي. إنه هنا وهذا يكفي. ولا يهمه الباقي. الندم؟ لا يعرف إليه طريقاً.

جونيور لا يعمل بحميّة. ولا يهتم أبداً لضياع وقته من أجل لقمة العيش. إذا ضحك في الساعة التي يعيشها فهذا جيد، ولا بأس إن كان عليه أن يتألّم في الساعة التي بعدها. وعلي كل، أليس النحيب ضحك مشوّه؟

جونيور لا يفكر بالغد، و يفكر بالناس ولا يفكر بإحسانهم. لقد عرف باباي الذي يلمّع الأحذية. واليوم باباي يعمل إسكافياً، فللبؤس ورثة.

جونيور إنسان حصيف. لقد طلّق الحياة شهواتها وغبائها. ليس لديه زوجة

ولا أولاد. سيعيش مرتاحاً لفترة طويلة.

جونيور حرّ كالريح. البحر صديقه الحميم. الأرض المقفرة موطنه. ومع ذلك فهو يخاف من ظلام الليل الدامس، ولكنه لا يستخدم المرآة العاكسة بل يكتفي بضوء النجوم.

وعندما يغادر جونيور هذا العالم، سيكتب على قبره:

لقد عاش دون أن يملك شيئاً

ومات دون أن يخلّف شيئاً

وعندما يدخل إلى جهنم، وسيلقى باباي يتذمر لعدم قدرته على إلباس الحفاة الملعونين أحذية.

تنحّي "عاش" ليستطيع رؤية صديقه الذي تحجبه المحطبة. لقد استلقى جونيور على ظهره ورفع ركبته إلى السماء فاتحاً ثغره. تيقّن "عاش" أنّ مَن هو في كنفه قد غفا حتى لو بدا له أنه يرقب شيئاً ما بين النجوم

***

الفصل الثامن

طلع النهار منذ ساعات، ولا يزال "عاش" يحدّق في السقف، إنه لم يتوصّل بعد إلى اعتماد الفرضيات والحلول المناسبة لإنقاذ الأرض المقفرة من أن يَنْزل بها غضب الباشا. أعياه التفكير ولم يعد عليه الليل بطوله بأي فكرة. لقد تخيّل كمّاً هائلاً من الحيل المصطنعة لكن لم ترقْ له واحدة منها.

استلقى "عاش" على فراشه المصنوع من القش، وأسند رأسه على راحة يديه، وضاع نظره في الفراغ، كان يدور في حلقة مفرغة وسط أفكاره التي كانت تتبدّد أمام التساؤلات.

تحولت العربة في لحظة إلى فرن تجفيف بسبب ارتفاع درجة الحرارة، وانبعثت منها رائحة نتنة بسبب الحديد والأحذية العتيقة.

قرّر الموسيقار التوجه إلى الشاطئ بحثاً عن الهدوء، ليلمّ بالوضع السائد.

- هل آتي معك؟ سأله جونيور.

- لا تتحرّك من مكانك.

احتج جونيور قائلاً:

- لكنني لست السيدة لوط.

- عليك أن تمتثل للأوامر ولا تطيل النقاش. لقد أردتَ أن نُخرِج الخيمة الصفراء رغم برودة الليل، وكان لك ما أردتَ. رغبتَ أن أكون لك بمثابة هزّازة لتنام، فنزلتُ عند رغبتك، استسلمتَ للنوم بينما بقيت ساهراً. أكلتَ بنهم، أما أنا فلم آكل. أنت خالٍ من الهموم وأنا مكبّل بالهموم.... اتركني، هل فهمت؟ لديّ ألغاز تحتاج للحل وأحتاج ألاّ أجدك على أثري. الوقت حرج يا جونيور.

التقط "عاش" سترته رغم حرارة الجو، ومشى قاصداً الشاطئ بخطىً حانقة. وفي الطريق التقى بليس الذي كان جاثياً بين كلابه الصغار، يراقب هارون. كان هذا الأخير يحفر حفرة كبيرة في الرمل بواسطة المجرفة.

- ما الذي سيخرجه لنا؟ سأل "عاش" وهو يتّخذ لنفسه مكاناً إلى جانب

بليس.

- لا بد أنه رأى في المنام أن سفينة نوح رست في هذا المكان بعد الطوفان.

- هراء ! وإذن؟...

- وإذن، فإن هارون على يقين أن سفينة نوح مدفونة تحت أقدامنا.

- وهو يحفر الآن لإخراجها.

- هو ذاك. قلتُ له إنّ فعله يدلّ على الغباء، ولكنه لا يريد أن يصغي.

نظر "عاش" بعين الحسد إلى هارون الذي كان غارقاً حتى جذعه في الرمل، عاري الجسد، يقطر عرقاً. وكأن الجنون أخذ من ذلك المتسامح كل مأخذ. كانت أكوام الردم تحيط به من كل جانب، وهو منهمك بإزالة الأنقاض، دون هدنة أو توقف.

- أعتقد أنك جئت تكلّمني عن الباشا، قال بليس للموسيقار.

- لا يخفى عليك شيء... هذا الفتى مصيبة. إنه قنبلة ذرية، يجب الإسراع في تفكيكها.

نادى بليس كلبته بالصفير فخرجت من بين العُلّيق، نهض وهو ينفض الرمل عنه ويتهيأ للعودة إلى المنزل، مصحوباً بجمع الكلاب من حوله.

- أذاهبٌ أنت؟ سأله "عاش".

- لقد كنتُ على الدوام واضحاً في بعض النقاط، أيها الأعور. أما الأمور الأخرى فهي ليست من اختصاصي. ليمارسوا البغاء أو ليأخذوا حذرهم! الأمر سيان عندي. وليقتل بعضهم بعضاً أو ليموتوا ميتة طبيعية! لا يتغير في الأمر شيء بالنسبة لي. أريد أن أبقى بعيداً عن كل شيء لا يخصّني.

- بل إن الأمر يعنينا جميعاً، بليس. إن الباشا على استعداد لإضرام النار في الأرض المقفرة.

- لا أكترث إطلاقاً يا "عاش". لي مكاني الخاص. أبيت فيه قرير العين. إذا كانت المصائب والأعمال الشريرة ستطالني، بئس الأمر، سآخذ كلابي وأرحل إلى مكان آخر. لا أريد شيئاً، ولا أطالب بشيء، ولا أتوقّع شيئ من أحد. الأشياء التي بحوزتي اقترضتها من القمامة. إذا توجّب عليّ إعادتها، فلا

مشكلة عندي. فالطرقات كفيلة بإعادة ما تسلبني إياه الأيام.

لم يلحَّ "عاش". كان يأمل أن يضم إلى قضيته واحداً أو اثنين من جماعة "الحُر" وبعضاً من جامعى الخرق البالية قبل أن يتوجه إلى الجسر العائم، ويتفاوض مع الجماعة المفكّكة من المخمورين، ليبحثوا في الطريقة المثلى التي ستعيد الباشا إلى رشده. لكنه أخفق في سعيه. وعلى كلٍ، لم يفاجئه الأمر. إن تنمية المشاعر لدى مُهَمّشي المشاعر، وجمعهم حول عمل صالح لا يعد منصباً اسميّاً. إنهم شبه قادرين على رفع إصبعهم الصغير من أجل خلاصهم. فإصلاح العقول المحتالة أصعب بكثير من تعديل كلاّب الجزار. كان "عاش " يدرك ذلك تماماً، ولكنه كان يحتاج إلى أن يتيقن من الأمر. لقد حاول وفشل. يتوجب عليه الآن أن يأخذ الموضوع على عاتقه حيث لم يعد هناك مجال للتراجع. فمصير الأرض المقفرة متعلق بقراره هو، وبحكمته وتضحيته. فهو مضطر لأن يضغط على نفسه، أن يجتاز الحاجز الصخري، أي "أرض المنافقين "، تلك الأرض التي أقسم ذات يوم أن لا تطأها قدماه أبداً...

بانتظار ساعة الحقيقة، اكتفى "عاش " بمشاهدة بليس يبتعد مع حيواناته، وقد اعتراه الغضب الذي يشعر به القبطان عندما يرى البحارة يُخلون السفينة أثناء هيجان العاصفة.

يستعدّ أينشتاين من جهته، لإجراء الاختبارات على آخر اختراع علمي توصل إليه. كان يحمل بفخر واعتزاز بإحدى يديه المحقنة المملوءة بسائل مقزّز، بينما يحاول بالأخرى تثبيت سحلية بائسة وجفلة على الأرض. أخذ يرجو الحاضرين أن يشهدوا العملية بصمت. لقد دعا إلى هذا الحدث التاريخي كلاًّ من الإخوة زوج، وكلوفيس، وإيتسيتيرا الملقب بالرافعة، وكانوا يشكلون حلقة حول حصاة كبيرة، وُضع عليها الحيوان الصغير الضحية وهو يضطرب. وأعلن أينشتاين قائلاً:

ـ إنه اكتشاف ثوري. سوف ترون هذه السحلية تستعيد شبابها بلمح البصر.

ـ لكن تجربتك مع الفأرة لم تنجح، ذكّره كلوفيس بصوته الذي كان يشبه صوت الغول في فترة النقاهة.

ـ لقد أجريتُ بعض التعديلات على المقادير. ثم إن تلك الفأرة لم تكن بيضاء

ناصعة.

عبّر كلوفيس عن رأيه وهو يراقب إبرة المحقنة التي علاها الصدأ.

- ألا يجدر بك أن تمسح جسدها بقليل من الكحول؟ سأل إيتسيتيرا.

- سبق أن غسلتها هذا الصباح بمصل من صنعي. إنها نظيفة ومسرورة، وهي تنتفض بدافع الحماس وليس بسبب الخوف. فالحيوانات تتمتع بحدس قوي، وتميّز إن كانت بين أيدٍ أمينة أو بين أيدي دجالين.

أراد كلوفيس أن يقول شيئاً ولكنه فقد سياق أفكاره وتقوقع على ركبتيه، بينما تحدّق عيناه في السحلية المنهكة التي بدأت انتفاضاتها تتباعد تدريجياً.

تمتم أينشتاين تعويذة غير مفهومة قبل أن يغرز المحقنة في بطن السحلية. فحرك الحيوان قدميه بطريقة غريبة قبل أن تجمد حركته، ويفتح فمه. انحنى الحاضرون على الحصاة وانتظروا بفارغ الصبر أن تحصل المعجزة. ولكن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث. بقيت السحلية من دون حراك، بينما بدأت أفواج من الذباب تحوم حولها بطنين متحمس.

- لقد مات حيوان التجربة، أيقن إيتسيتيرا.

- كلا، إنه لا يزال تحت تأثير المخدر. فالعملية كانت صعبة.

- أقول لك إنه مات.

رفض أينشتاين أن يتقبّل الأمر. فأخذ ذقنه بين إبهامه وسبّابته بينما تسمّرت عيناه على السحلية التي أصبحت جثة هامدة بلا حراك، وأخذ بطنها يميل إلى اللون الرمادي في مكان الحقنة.

- السبب يعود إلى تلك المقادير السيئة، اقترح إيتسيتيرا قائلاً.

- مستحيل. لقد تحققت من البراميترات. لا يمكن أن أكون قد أخطأت هذه المرة. سوف ننتظر حتى يستجيب الحيوان.

- لدينا أشغال أخرى بانتظارنا، تمتم كلوفيس وقد خاب أمله.

- بما أنني أقول لكم إن الأمور كلها تحت السيطرة. دعوا العلم يأخذ مجراه، تباً لكم! إنها ليست عصاً سحرية. إنه العلم. إن الموضوع يتطلب وقتاً، إذ إنه يتعلّق بإعادة الشباب، عجباً! إنه ليس كعكة الفاكهة.

بدأ إيتسيتيرا يضطرب، وأخذ يشعر بحكّة في ذراعه الموهوم. فسأل أينشتاين:

- كيف تفسّر الألم الذي أشعر به في معصمي وأنا الذي فقدت ذراعي منذ أعوام؟ يبدو الأمر غريباً، أليس كذلك؟ فقدت ذراعي ولكني أشعر أنه لا يزال لديّ ذراع. أشعر أحياناً بألم في الإبهام، وأحياناً أخرى في المرفق، وأحياناً أشعر بتشنج في المعصم بينما لم يعد لديّ ذراع.

- كم مرة عليّ أن أكرر لك أنها أعراض الغاسبير؟

- حسناً، ولكن ماذا تعني أعراض الكلمة التي ذكرتها؟

- اعلم أن الموضوع طبّي بحت. قد أرسم لك ألف جدول ولكنك لن تفهم.

- ولِمَ لا؟

- هل درست العلوم؟

- كلا.

- فكيف أشرح لك وأنت ليست لديك أي خلفية علمية؟

- ألا يوجد هناك علاج؟

- سأفكر بالأمر حالما أستكمل عقار تجديد الشباب.

وبعد الاتفاق حول هذا الموضوع، عاد الجميع إلى مراقبة السحلية الراقدة بلا حراك على الحصاة.

في هذه الأثناء وصل ديب وهو يدفع أمامه ميموزا في حالة يُرثى لها.

- انظروا ماذا أحضرت لكم من مستودع القمامة، قالها ديب باستهزاء. زيادة على ذلك فهو متحفظ.

آه ! من ميموزا ! إنه لغز ! لا يستطيع أحد أن يؤكد إن كان صاحب ماما أو أبوها، أو أخوها أو ابنها. ما نعرفه عنه هو حصراً ما يظهر لنا: بقايا لكائنٍ حي غير قابلة للتحلّل؛ منتج اجتماعي مجهول الهوية؛ مجهول مراحل التطور وطريقة الإعداد؛ كائن حي سقط في النفايات، سُلِّم لظلم الأيام والتحلل العرقي. قصير القامة، جاف البشرة، ترابي اللون، كامد النظرة، لا يتجاوز وزنه الأربعين كيلوغراماً متضمناً الوزن الفارغ. فمه خالٍ من أي جذيمة سن،

وأصابعه فقدت أظافرها، خطّت وجهه ندبات الزمن. إنه باختصار حطام بشري في مهب الأحزان المحيطة.

- اذهب يا ديب، وأعده إلى المكان الذي وجدته فيه. قالها إيتسيتيرا بلهجة الأمر. سوف تأتي ماما بصحبة الباشا، ويزداد الوضع سوءاً. ولا يخفى عليك كم تمقت أن يغامر عشيقها بنفسه في هذا المكان.

- أشعر بالعطش، اشتكى ميموزا وهو يترنح بتكبر كالدجاجة التي تتعرض للشمس. أليس لديكم بقية جرعة هنا أو هناك؟

مما لا شك فيه أن ميموزا متحفّظ - وهذا بحد ذاته بلاء حسن - ولكنه لا يزال يفكر كالمخمور. إنه يمسك سرواله العريض بيد محمومة، ويمسح أنفه بظاهر يده الأخرى بحركة آلية. كان صدره النحيل يعوم في اللباس الصوفي المقطع والوسخ الذي كان يرتديه وكأنه ممسحة بالية. تغطي قدميه الحافيتين جلدة سميكة مشققة، أما عيناه المتآكلتان فكأنهما شقان طائشان في وجهه الخيالي.

- ليس لدينا شيء نعطيك إياه يا ميموزا، قال له إيتسيتيرا. لا نبحث عن مشاكل مع ماما. إذا وجدتكَ بيننا فسيساورها الشك بأنك تلقيت ضربات مشوِّهة، ومع الهموم التي يفرضها علينا الباشا ستتأزم الحالة.

رسم ميموزا على وجهه تكشيرات ليستجلب شفقة الجماعة.

- لا تصرّ يا صديقي، وعُدْ إلى منزلك.

كان ديب مستمتعاً بالتعاسة التي كان فيها الرجل المسكين. لقد تعمّد جلبه إلى الجسر العائم لكي يتسلّى.

- هل تريد أن تستنشق الخمر؟

أومأ ميموزا برأسه.

- إذن الفظ كلمة "غروتيسك"

- "غروتيكس"، قالها ميموزا بصعوبة.

- "غرو – تيس – ك " كرر ديب، وهو يعقد بين الإبهام والسبابة في حركة دائرية دقيقة، وهو يلفظ كل مقطع بتمهّل.

- "غرو – تيكس"

- "إسكلاف"

- "إيكسيكلاف".

استولى الضحك على ديب حتى انحنى ظهره إلى الأسفل وقد غرز قبضتيه في بطنه لدرجة كادت زردمته أن تنفطر. بينما كان ميموزا ينظر إليه بهبل وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة مثيرة للحزن.

- "جيغانتيسك"

- "جيغانتكس"

- "أبراكادابرانتيسك"

- كلا، كلا، ليست هذه. إنها كلمة طويلة جداً، وليس لديّ نفس طويل.

- حاول لفظ "فانتاسك"

- "فانتاكس".

كان ديب يتلوى من جراء نوبة الضحك التي انتابته وجعلته يدور حول نفسه، ويضرب فخذيه بباطن يديه. بدا فمه المفتوح ملء شدقيه كأنه يبحث عن ذبابة صغيرة ليلتهمها أثناء طيرانها، بينما كان منخراه يرتجفان، كدرفتي نافذة في الهواء. يبدو جلياً أنه يبالغ في الأمر، وأن صهيله محدود، ولكنه يعشق أن يعمل وجبة كاملة من طعام مسخن. إنها فكرته المحبّبة. إذ إنه يكتشف أن لديه رسالة خارقة يوليها جلّ اهتمامه، حتى لو مُني بخسارة.

- هذا يكفي! صاح إيتسيتيرا مستنكراً. ألا تشعر بالخجل من سوء معاملتك لهذا المسكين؟... متى ستتعلّم حسن الخلق؟... من فضلك يا ميموزا، عد إلى بيتك. ستقتلع ماما أذنيك إذا وجدتك هنا. أنت تعلم جيداً كم هي سليطة اللسان. ستلجأ إلى ضربات غير شرعية ولن يستطيع أحد إيقافها.

- ارفع المرساة يا ميموزا، تمتم أينشتاين الذي يكره إحداث صخب حول خبراته العلمية. هيا، هيا، اذهب. رأيناك بما فيه الكفاية.

- رأيناك بما فيه الكفاية، ردّد الأخوان زوج.

تمخّط ميموزا مُحدثاً ضجيجاً، وهو يتمايل في مكانه، ثم رفع سرواله وعاد

أدراجه باتجاه المزبلة جارّاً قدميه كما لو أنه يحمل أعباءً ثقيلة.

بعد أن تمّ طرد الدخيل، عاد الجميع لمراقبة السحلية التي ذُبحت على الحصاة.

- عجباً، عجباً، صاح ديب وهو يكتشف أن "عاش " واقف وراءه... الشاعر الكبير يزورنا الآن؟

- السلام، قال "عاش" بصوت خالٍ من أي نبرة.

- أي ريح طيبة أتت بك إلى هنا؟ لقد مضى وقت طويل. إنك تتكبر علينا منذ زمن بعيد، نحن هنا جمعية المرائين. فما الذي حصل؟ هل ضللت الطريق؟

لم يعر "عاش " أي اهتمام لاستهزاء ديب. فهو لم يأتِ إلى هنا لكي يثير المشاكل مع هذا المرائي الذي لا يجد أي إحراج من الانبطاح على بطنه ليجعل من ظهره مداساً للآخرين.

قال وهو رافع الرأس :

- أين هو، زعيمكم؟

أشار إيتسيتيرا بذقنه إلى الخيمة التي كانت تحت رحمة الهواء البحري.

- إنه ثمل كالحمار، إني أحذرّك.

- هل هو هائج؟

- لقد هدأ الآن. بعد أن فقد صوته من كثرة الصياح.

حك "عاش " قمة رأسه، وقد بدا عليه الانزعاج. لم يسبق له أن شعر بالارتياح في هذه البقعة من الأرض المقفرة. فالقرب من هؤلاء الناس الذين يجدون متعة في الميوعة، تولّد لديه شعوراً بالغربة. بذل جهده في الماضي لجمعهم حول فلسفته، ولكن دون إحراز أدنى نجاح. قام بمدحهم كما لم يسبقه أحد إلى هذا، ثم بالغ في تعظيمهم إلى درجة تشعل نار الغيرة حتى لدى الأصنام، وذلك قبل أن يدرك أنهم لا يستحقون كل هذا الجهد. إنها كائنات مجرّدة من وضوح المعالم والفضل، تجسّد بالنسبة له أسوأ أشكال الانحطاط. وإذا كانوا يتمسكون بتعنت بسنوات الأنوار لفترة فداء مضت، فهذا دليل أنهم ماتوا وانتهوا. يعلم "عاش" جيداً أن التفاوض مع أشخاص متصلبين برأيهم

يحط من كبريائه، لكن هناك قضايا أقوى من المبادئ والعهود، وأهم من الأنا – إنها تلك المتعلقة "بالوطن" وهي من أكثر القضايا شرفاً...

فكّر ملياً قبل أن يسأل :

- أتعتقد أنه سيذعن لاستقبالي؟

- عليك بسؤاله، زمجر ديب بشيء من الغدر.

- أعتقد شخصياً أنها ليست بالفكرة الصائبة، قال إيتسيتيرا. فالباشا في حالة سيئة للغاية. وهو يرفض رؤية أحد.

- إنه مثير للسأم والضجر كالموت، أضاف ديب.

حرك إيتسيتيرا حاجبيه تعبيراً عن قلقه، وهو ينظر بذعر باتجاه العربة.

- أحب أن أشير إليك أنك تتكلم عن الباشا.

- وهذا سبب إضافي. أصرّ ديب. فلو كان شخصاً آخر لكنت صفحت عنه، ولكن الموضوع يتعلق بالباشا شخصياً. كان عليه أن يُبدي المزيد من التحفظ. ولكن أن يبكي، وفي سنّه، هو العنيد أكثر من أي عنيد؟... الأمر يدعو للاشمئزاز حتى ليتقيأ المرء حليب أمه.

- إنه مكتئب، همس إيتسيتيرا في أذنه.

- هذا لا يمنع. إنه الرئيس. وعندما يتألم الرئيس، عليه أن يتماسك ويحافظ على مكانته...

- لِمَ لا تَقُل له ذلك في وجهه؟ قال له إيتسيتيرا بتحدٍّ.

- لأنه لا يعاملنا بديمقراطية. إنه لا يتقن سوى الضرب بشدة، والصراخ. كنت أحبّذ أن يبقى حيادياً في المصائب. على الأقل والحالة هذه، أضمن ألاّ أشعر بتفاهتي عندما أتذلل أمامه... من هو بيبو؟ البحر الذي نشرب؟ أم نهاية العالم؟ أم كارثة القرن؟ إنه ليس سوى شخص غير مرغوب فيه لا يبالي أن يتضارب بمفرده. ما الذي يميّزه عنّا نحن الاثنين؟ عندما لم يعد باباي من المدينة، هل عمل الباشا منها قضية دولة؟ إنه حتى لم يتنبّه للأمر. لَم إذن تتحول حياتنا إلى كدر من أجل بيبو؟ لماذا علينا أن نكون تعساء لفرار بيبو؟... هل رحل؟ حسناً، لقد تخلّصنا منه!..

- لا يمكن للباشا أن يستغني عنه، قال إيتسيتيرا مذكّراً.

- وماذا عنّا نحن؟ أليس لنا وجود؟ لن يجد الباشا تابعاً خيراً مني. إنني لا أنفكّ عن التملّق له، أما هو فإنه يعاملني معاملة الحشرات. هل تجد أن في ذلك عدلاً؟

- ديب على حق. علّق "عاش" بهدوء الحكماء. ذهب بيبو. لم يبقَ على الباشا إلا أن يعثر لنفسه على بديل. وكلما أسرع في ذلك كلما كان أفضل له. لا أريد أن يعقّد لنا حياتنا. نحن نشعر بالراحة هنا، نحن نحيا في سلام. لا أحد يأتي إلى هنا ليرى كيف نتدبر أمورنا لنبقى على قيد الحياة، وهذا أفضل. لا مكان للغرباء بيننا. إننا لا نفضح أمورنا أمامهم. يجب علينا أن نمنع الباشا من تبديد الطمأنينة التي نعيش فيها. هل تحبّذون أن يُسفك دم أحدنا؟

- كلا! صاح كل من ديب وإيتسيتيرا وهما يبصقان على صدرهما لإبعاد الأرواح الشريرة.

- هل تحبون أن يعيث الباشا في المزبلة الحديد والنار حتى تأتي الشرطة وتطردنا من وطننا؟

- فأين نذهب؟...

- هذا آخر همهم، أتكلم عن رجال الشرطة. إنهم يحملون الهراوات وينتعلون المداسات، وهذا يليق بهم. تقتضي مصلحتنا أن نعيد الباشا إلى رشده إذا أردنا أن نبعدهم عن مشاكلنا.

- نعم، ولكن كيف؟

- لنبحث له عن امرأة.

- ولماذا امرأة؟

- حسناً، لأن هذا مناسب له تماماً.

ألقى ديب برأسه إلى الخلف، وأسند جسده إلى مِرفقيه، وأطلق ضحكة رنانة تنم عن عدم شفافيّة.

- الباشا لا يحب النساء، يا "عاش".

- أغلقه، قاطعه إيتسيتيرا.

- ماذا؟! إنها الحقيقة. لم يكن الباشا مغرماً إلّا بالرجال. أما النساء فإنه لا يعرفهن. بالإضافة إلى ذلك، ينقصهن الشيء الأساسي.

- لم أفهم قصدك، قال "عاش ".

- ولكن الأمر واضح. فالباشا يبحث لدى الرجال عن شيء غير موجود لدى النساء. شيء ما موجود تحت الحزام.

- أغلقه. قال إيتسيتيرا بغضب.

- عليّ أن أشرح له بشكل مفصّل.

- لقد فهم الموضوع. ولا يحتاج إلى محاضرة.

- أي محاضرة تعني؟ سأل "عاش ".

- أرأيت؟ قال ديب. لم يفقه شيئاً... لا أبحث عن نصب العداء لأحد يا "عاش"، عليك أن تتبع رأيي. الباشا يحب الرجال. غير أنه يحب أن تسير أموره على ما يرام، إذا سمحت لي أن أستخدم هذا التعبير. صحيح أن ضربه عنيف كالحديد، ولكن عندما يتعلق الموضوع بمثل هذه العلاقة فإنه يفضّل أن يكون المتلقي بدل أن يكون المرسل.

- ديب! صاح إيتسيتيرا باستنكار وقد بدا عليه السخط والذعر في آنٍ واحد، وكان ينظر إلى العربة. كفاك ما روّجته من الحماقات اليوم. أقسم أنكَ أسوأ من طائر العقعق. يجب على أحدنا أن يقطع لسانك ويشدّ به وثاقك.

تفكّر "عاش" بكلمات الأول وردّة فعل الثاني، غصّن عينه السليمة، وهزّ رأسه. لقد فهم كل شيء، لكنه أصرّ قائلاً:

- لا يهم، يجب أن نبحث له عن امرأة ودون تأخير.

احتمى إيتسيتيرا خلف ذراعه الموهوم بحزم، واضعاً أصبعه داخل أذنه كي لا يسمع المزيد. إنه يأسف لوجوده هنا إلى جانب إنسان نمّام، بغيض وانتحاري. تظاهر أينشتاين بإعادة إنعاش السحلية لكي يوهم الثرثارين أنه لا يهتم بالأمور البعيدة عن العلم. إنه يشعر هو أيضاً بالارتباك. أما النظرات التي يقذف بها ديب بين الفينة والأخرى، فكانت تنم عن الحقد الذي بداخله. بينما تابع الأخوان زوج، الغارقين في عالمهما الخاص من الانطوائية الغامضة، تابعا التحديق في خطوط أيديهما.

- انظروا! صاح نيغوس الذي كان يقوم بالحراسة، ليس بيبو ذلك الذي يبدو من بعيد؟

تراءى لهم خيال هزيل متجه نحو الأرض المقفرة. كان ديب أول من قفز على قدميه وأطلق نظرته الثاقبة الشبيهة بنظرة الباشق باتجاه الخيال القادم. ولخيبة أمله الكبرى تعرف على عشيق الرئيس فتغيرت ملامح وجهه على التو، وتمتم قائلاً:

- لم يكن ينقصنا سوى هذا.

وما أن أدرك الفرصة التي تهيأت له لمحاولة الحصول على حظوة لدى الباشا، اندفع بسرعة باتجاه العربة وصاح :

- سيدي، سيدي، لقد استُجيب دعائي، عاد بيبو!

انتفض الباشا من سكرته تماماً كالجنّيّ الذي ينبجس من مصباحه، وهو الذي كان مستلقياً على فراشه كالخرقة البالية. بقي مشتتاً خلال ثوانٍ ثلاث. جالت عيناه الدامعتان على البسط قبل أن تعودا إلى ديب الذي أصيب بالهيستيريا. كانت صيحات الفرح التي أطلقها ديب أشبه بتساقط الأنقاض فوق رأسه الخاوي. فأمسك الباشا بتلابيب ديب وأرغمه على السكوت، ثم أخذ يسحقه على العارضة الصغيرة ويضيّق عليه الخناق دون أن يشعر.

- ما هذا الذي تفوهَت به؟

- بيبو في الخارج، أيها الزعيم، قالها ديب وهو يبصق من أثر الاختناق. لقد عاد.

قذفه الباشا من أعلى السرير واندفع مسرعاً ملهوفاً إلى الطريق بعد أن صحا من حالة الثمالة التي كان فيها وكأنه خارج لتوه من جلسة تنويم مؤلمة. اضطر لحجب الشمس عن وجهه أن يضع يده كمظلة. وعندما تعرف على مشية صاحبه المترنحة، تعلّق بالستار كي لا يسقط أرضاً. ظل طويلاً يبتلع لعابه وهو يغمض جفنيه ثم يفتحهما، ويدعو في أعماقه أن يكون العائد حقيقي، أي بشحمه ولحمه... وكلما اتضحت الرؤيا، تبدّل حاله من الريبة إلى الحماس، ومن الفرح إلى الغضب، لأنه كلما أمعن التفكير في حقيقة الأمور، عاد إلى مخيلته الحزن الذي عانى منه طيلة الأيام والليالي المنصرمة مع

شيء من الألم والحقد.

عاد بيبو من بعيد. عاد بخُفَّي حنين. عاد تائهاً، فارغاً كالدملة. يبدو أنه مشى إلى أقاصي الأرض، إلى حد أنه كان يتعثر في مشيته ويكاد يسقط. غطى الغبار وجهه، وتقطع نعله، وكان قميصه مفتوحاً على بطنه المغطى بلطخات بنفسجية، كان بترنحه أشبه ما يكون بغريق الصحراء الذي يبقى السراب أمله الوحيد في هذه الحياة. وعلى الجسر العائم حيث خيّم صمت مطبق، أخذ كل من أينشتاين، وإيتسيتيرا والآخرين ينهضون ويتقدمون نحو القصر ليصطفوا خلف رئيسهم. لم يجرؤ أحد منهم على الصياح أو التفوّه بأي كلمة. تعلقت الأبصار كلها باتجاه هذا الهارب الذي كان يدنو ببطء.

لقد نفدت جميع وسائل بيبو. إنه لا يرى أياً من صبية الجماعة. كان جل انتباهه مشدوداً إلى الباشا الذي بقي متمسكاً بطرف الستار. لقد أدرك أن الباشا كان سعيداً لرؤيته، ولكنه في الوقت ذاته، يعلم تماماً أن الباشا لن يغفر له الألم الذي سببه له بهروبه... وعندما وصل إلى "البلاط "، توقف وانتظر برباطة جأش أن تنطبق السماء على رأسه.

لا يزال الصمت الرهيب مخيّماً على الجسر العائم.

تفرّس الباشا مطولاً بعشيقه ثم سأله بصوت مرتجف لا يكاد يسمع:

- لماذا رحلتَ يا بيبو؟

شبك بيبو يديه حول وجهه وأخذ يبحث عن كلماته وينتظر كي يهدأ تنفسه قبل أن يقول بصوت مخنوق:

- أردتُ تغيير حياتي.

انطلقت كلماته تصطفك في هذا السكون، كأنها عيارات نارية.

بحث الباشا في أعماق أحشائه عن نفحة هواء كي لا يسقط جثة هامدة. بينما ارتجفت شفتاه من أثر النحيب الذي انتابه. أخذ يمرر يده من داخل القفاز على فمه مراراً وتكراراً، ثم يدخلها في شعره المشعث، ثم يقرص زاوية أنفه. إنه لا يدري كيف يدير الموقف.

تنهد أخيراً وقال :

- لماذا عُدْتَ؟

أجاب بيبو عن كثب:

- لأنك حياتي.

بدا الأمر وكأن الغيوم تلاشت فجأة في السماء، وزال اكفهرار الأرض، وتوقفت عواصف المحيطات. سقطت الأقنعة، وهدأت الجلبة، وبسطت الأرواح جمالها لتنير بضوئها القلوب الحاقدة.

التف العشيقان بالحب الرائع الذي جمعهما، ضمّ أحدهما الآخر بقوة وكأنهما نيزكان، حتى كاد جسداهما أن يتفتّتا.

***

كان "عاش" في غاية السعادة.

جلس على عتبة العربة، وأخذ يتأمل النار الهائلة التي أضاءت الجسر العائم، والتي أشعلتها الجماعة احتفالاً بعودة بيبو. عادت الأمور إلى نصابها. انتهى عهد الحزن والألم؛ عاد الهدوء ليخيّم مجدّداً على الأرض المقفرة. شعر "عاش" بالعزاء. كانت الأمسيات الجميلة نادرة، وهذا المساء كان واحداً منها. ولم يحقق له هواء البحر الطمأنينة التي يعيشها الآن إلا مرات قليلة.

انطوى جونيور على نفسه أمام الخيمة الصفراء وأطلق نظره باتجاه النار الهائلة التي كانت تتمايل على الجسر العائم. إنه لا يشعر بالسرور، ولم يتوقف عن إرسال التنهيدات الرنانة في كل مكان من حوله.

- بصراحة، تمتم متوجهاً إلى الموسيقار، الموقف ليس لطيفاً. لقد أسكرْتني بقصص الحب، وعندما يكون هناك موقف فرح تكون أول من يمنعني من الحضور.

هز "عاش" رأسه يمنة ويسرة:

- إنك على حق، يبدو أن الأمور قد انتظمت.

- لماذا حجزتني في هذا المكان؟

- كنت أخشى أن تسوء الأوضاع. لا يمكن توقع أي شيء مع الباشا، ولم أرد أن تصاب بأي مكروه.

- أين هي المصائب يا "عاش"؟ إن الشباب يمضون أوقاتاً سعيدة بينما أنا هنا أكاد أموت من الضجر.

- قلت لك إنِي كنت على خطأ...سأسمح لك غداً بالانضمام إلى تلك العصبة من المعتوهين إذا لم تحصل مشاجرة.

- لا أصدقك، غداً ستعود إلى تحفظك المقدس وستختلق حجة ما لتمنعني من المشاركة في الاحتفال. إني أعرفك جيداً. إنك دوماً تقول شيئاً وتتبعه بعكسه في الحال، لقد بدأت أفقد ثقتي بك. هل تدرك ما أقول؟ ستقول لي أني أتفوه بحماقات لو تركتني أذهب إلى الحفل هل لك أن تبين لى ما الذي جنيته من سجني هنا؟...لم يكن يجدر بك أن تقدم الرسن الذي تملكه إلى بليس كهدية، يا "عاش". الرسن الذي كنت تملكه صُنع لأجلي. حتي الكلاب، إنها لا تبقي في

مكان واحد. أما أنا فإني مسمر هنا من الصباح حتى المساء، لا أعمل شيئاً. هل أنا أسيرك يا "عاش"؟ إذا كنت كذلك فما عليك إلا أن تضع الأغلال في يدّي. في هذه الحالة فقط سأكف عن الحيرة التي أنا فيها.

- ما هذا الذي ترويه يا جونيور؟ أنت لست كلبي ولست أسيري. أنت كل حياتي، ولا أريد أن أفسدك. أنت لست مسمّراً هنا، إنه أنا الذي يسهر على راحتك. لم أدعك تذهب إلى الجسر العائم لأني خفت من الباشا أن يتفوه بحماقات بعد أن يتناول كأسين أو ثلاثة كؤوس دهاق. هل تتخيل نفسك وسط شجار صاخب؟ كيف ستنجو بنفسك وسط الضربات التي تذهب في كل الاتجاهات، والزجاجات التي تتطاير في كل مكان، والسكاكين التي تسحب لمجرد كلمة نعم أو لا؟

- كيف تراهم وهم يتشاجرون؟

- حسناً يا جونيور، أعدك أن تذهب غداً.

- ولِمَ ليس الآن؟

- لأني في هذا المساء أريد أن أغتنم فرصة وجودنا مع بعض. إني أرغب أن أكون معك. إننا نشعر بالراحة عندما نكون معاً، أليس كذلك؟ ثم إنني جدّ سعيد لأن الأمور عادت إلي نصابها.

- إذن لماذا نبقي في الظلام طالما أنك مسرور إلي هذه الدرجة؟

نستطيع أن نمضي وقتاً ممتعاً، نحن أيضاً، لسنا مضطرين لأن نوقد ناراً كبيرة لكي نقهقه. أنت موسيقار يا "عاش" تستطيع أن تحيي حفلة بمفردك عندما تلف نفسك عناء ذلك.

- أوافقك الرأي، قال "عاش" بحماس وهو يتحسس آلة البانجو في الظلام، سنمضي وقتاً ممتعاً. لا يوجد أي سبب. سوف نقول الحماقات... ماذا تريدني أن أن أغني ذلك، يا جنيور؟ أنت الرئيس هذا المساء. أنت من يطلق الأوامر وأنا أنفذ. ما الذي تريده؟ "الأسطورة"..."أغنية الإخوة المفقودين"..."في اليوم التالي"..."المشردون"؟

- "المشردون" إنها أغنيتي المفضلة.

- موافق ! أنت ضيف الشرف يا جونيور.

كثّف جونيور تركيزه بوضع أصابعه على صدغيه، أخذ يتابع الإيقاع بطرف ذقنه، ونفخ وجنتيه وأخذ يطبّل بفمه: (توف – تك...توف – تك). كان "عاش" يشجعه برأسه بانتظار تنظيمه للإيقاع، ثم انطلق بأعلي صوته، مداعباً حبال البانجو، وكأنه يسعى إلى طرد الشكوك التي تدنس روحه:

إنهم ليسوا مخدوعين
ليضعوا الحبل حول أعناقهم
إنهم ليسوا مجانين
ليقبلوا برئيس يتتبع آثارهم
أولئك المشرودن
إنهم أحرار كالريح
لا يجد لديهم شيء ليتملقوا لأجله
يعيشون وفق الفصول
كالمتوحشين المثقفين
أولئك المشردون
ليموتوا جوعاً شتاءً وصيفاً
أو ليشربوا حتي الثمالة أو الموت
ليكونوا على حق أو على باطل
لا يهتمون بالعالم أجمع من حولهم
أولئك المشردون

راح جونيور في حالة من الذهول. كانت وجنتاه المليئتان بالهواء تهتزان مثل زق الحداد، وتملآن المكان من حوله بالرشاش المائل إلى البياض. كان يحدث أصواتاً عالية جداً كأنه ينقر على الطبل، ويصفق بيديه، بينما بلغ صوت "عاش" الضخم عنان السماء، حتي كاد أن يطغي على صَخَب السنين.

***

ا ا

كان في العالم
والعالمُ به كُوِّنَ
والعالمُ لم يعرفه
أتي إلى خاصّتِه
وخاصّته لم تَقْبَلْه

يوحنا،1، 10-11

الفصل التاسع

فجأة، ظهرت أسراب من الطيور بين القصب، وعلت في السماء وهي ترفرف بأجنحتها من الذعر. فالتفت "عاش " ناحية الصوت واسترق السمع وظن أنه أزيز، وخُيِّل إليه أن هناك كلباً شريداً يقترب وسط العُلَّيْق الجاف. التقط حجراً وراح يلوح به لطرد الدخيل.

- هيه! صاح أحدهم. يبدو أنك لست في حالة جيدة أليس كذلك؟

وفي الحال، ظهر وجه بليس المتغضّن في قمة التل.

- كان يجدر بك أن تُعْلمني بمجيئك، قال له "عاش" لائماً. في آخر مرة أكل كلبٌ شاردٌ دجاجة بالكامل كانت عندي.

- لستُ كلباً، وبخه بليس بعنف، وهو ينزلق على جنبه في مواجهة أرض "عاش " المسوّرة.

كان يتصبّب عرقاً، وقد كشف سرواله الذي شمّره إلى ما فوق ركبتيه عن ساقين هزيلتين مشطّبتين ومثقوبتين ببقع سوداء.

- ماذا تريد؟ أنت لا تحب أن يزورك أحد، في حين أنك تأتي الناس في بيوتهم دون دعوة منهم.

- يعاني هارون من الإسهال. إنه لا ينفك يتغوط بشكل عشوائي.

ضحك " عاش " مستهزئاً وقال :

- وماذا سيؤثر ذلك علينا، جونيور وأنا؟ أم أنك تريدنا أن نمسح له مؤخرته؟

- إن الأمر خطير، صاح بليس، بينما كان لعابه يتطاير من فمه ويرتد على ذقنه بعنف.

بليس إنسان كتوم. لم يكن ليفتح قلبه أو ذاكرته لأي أحد. كان يقضي أيامه في المماحكة، ولياليه في نوم العاقلين. لم يسبق لأحد أن سمعه يشتكي أو ينوح، ولكن عندما يسيطر عليه الغضب، يطال صراخه أعماق البحر فيتراجع من أمامه كل شيء، حتى الأمواج في البحر.

- منذ متى وأنت تهتم بجيرانك، بليس؟ ألست أنت الذي أعلنت أنك لا تهتم

لأمر الآخرين؟

- هارون ليس من الآخرين.

ثم هدأ فجأة، وشبك أصابعه التي كانت ترتجف، وشخر مثل الجواد الرديء المنهك، وأضاف :

- إن الأمر أخطر من الخطر نفسه. لم يسبق لي أن رأيت هذا من قبل. هارون يفرّغ أمعاءه كالحنفية. لا يكاد يرفع سرواله حتى يجلس مجدداً ليفرغ مرة أخرى. هذه حاله منذ ساعات. لقد أخرج كل ما في كرشه. ثمّ بعد ذلك، أخرج دماً. هنا قلت في نفسي إن في الأمر شيئاً ما.

عقد "عا ش" حاجبيه:

- أمتأكد أنت أن ذاك لم يكن عصير الطماطم أو أشياء شبيهة به؟

- يجب أن نتصرّف، أيها الأعور. لن ينفع أن نبقى هنا ونتسلى في حل الألغاز. هارون مرهق. إنه يغرغر، ويتلوى من الألم الذي أصابه في مصرانه. لقد شحب لونه حتى بات يشبه بطن السمك، يبدو أنه لا يعرف أين هو بالضبط. سبق لي رؤية كلاب مريضة، ولكن لم أرَ أحدها يتلوى من الألم مثله.

انحنى "عاش" على آلة البانجو لكي يفكر، ثم اعترف قائلاً:

- هذا صحيح، لا يبدو الأمر طبيعياً.

- لقد حذرته، تابع بليس. قلت له إنَّ المزبلة لم تعد آمنة، حيث إن العديد من القطط نفقت بسببها. فمع ارتفاع درجات الحرارة يتحلل الطعام. لكن هارون لا يصغي، ولا يعمل إلّا ما في رأسه، ورأسه فارغ من الأفكار، فبذلك لا يستطيع أن يقدّر خطورة الموقف الذي يتعرض له. بالأمس جلب معه معلبات التقطها من المخلفات. يجب أن تكون أعمى البصر حتى لا تلاحظ أنها كانت منتفخة من ناحية، وعلاها الصدأ من الناحية الأخرى. فقلت لهارون إنه يجب عليه أن يتخلص منها. رفض بادئ الأمر ولكن عندما ذكرته بالدرن الذي كاد يأكل وجه نيغوس، وعدني بإلقائها في العوامة. ولكن يبدو جلياً أنه لم يرم بها. عاد بها إلى كوخه وأكلها. كان صراخه الذي يشق الليل يشبه صوت ابن آوى عندما يعلق ذيله في سلة مليئة بحيوانات السلطعون. وعندما ذهبت هذا الصباح لأشد له أذنه وجدته يركض بين التلال من شدة الألم. اعتقدت أن

الأمر لن يطول، غير أن هذا المشهد لم يتوقف. وعندما رأيته منذ دقيقتين وقد غلبه الإعياء من الحشرجة، كان ممدداً في بيته الأحمر الحقير، أدركتُ أن الأمر شديد الخطورة. لقد هزل جسده في طرفة عين، واسود وجهه حتى أصبح بلون الدخان.

- هل يعاني من ارتفاع في درجة الحرارة؟

- قلت لك إنه بحالة سيئة، إنه يهلوس، يقول إنه يرى أشخاصاً من حوله، ويرى أمه جالسة عند رأسه ترنو إليه بابتسامة حزينة.

- هذا ليس نذير خير، قالها "عاش" وقد بدا عليه القلق. أشعر بالضيق عندما تنتاب الغشاوة إنساناً ما. هذا يدل على أنه بدأ يفقد صوابه وأن الجراثيم هاجمت مخه. (نهض واقفاً). يجب أن أذهب إلى هناك لأتحقق من الوضع عن كثب.

عقد جونيور حاجبيه واعترض قائلاً:

- ولكنني لم أنتِه بعد من التهام طعامي. كيف تريد أن تطول قامتي يا "عاش "، إذا لم أنِه وجبتي؟

- هناك أمر عاجل، نبهه "عاش".

نظر بليس إلى جونيور بازدراء وقال له:

- متى ستتعلّم أن تتقن حساباً للأشياء؟

لم يفهم جونيور قصد بليس بكلمته "حساباً للأشياء"، ولكنه أدرك أن هناك تعنيفاً قاطعاً. أبعد الضوء الكاشف عنه ونهض بدوره ولكن على مضض.

كان هارون ممدّداً على مجموعة خرق بالية، وقد انفتح قميصه وظهر منه ثغرة بلون التراب الأحمر القاتم، تقوم مقام بطنه، وقد ربط رأسه بوشاح. بدا وجهه كأنه كرة من ورق ممضوغ، وكان مخيفاً من شدة المعاناة والإعياء، غارت وجنتاه، وتلونت شفتاه المتشققتان من شدة التأوه بلونٍ أخضرَ زيتوني، بينما تاهت عيناه الواسعتان في الغرفة وكانتا بلون اللبن. وعندما أحسّ بقدوم جيرانه، حاول أن يتحرك ولكن جسده لم يساعده.

جلس "عاش " القرفصاء إلى جانبه، وقال له:

- أرأيت الحالة التي وضعت نفسك فيها؟ إنها القذارة التي ابتلعتها، لقد فعلت فعلتها في معدتك.

- التأنيب لن يجدي شيئاً، "عاش". إنه لا يسمع. ما يجب فعله هو تخليصه مما هو فيه. إذا كنت موسيقاراً فلا بد أنك تتقن السحر. ستجد بدون شك دواءً سحرياً يعينه على استعادة توازنه.

- لست ساحراً.

- لا يهمني الأمر. إنك الأكثر ذكاءً فينا. وأنت رجل محترم. لا بد أنك الوحيد القادر على إنقاذه. قل لي ماذا أعمل وسأنفّذ أوامرك بحذافيرها. ليس لأن هارون صديقي ولأني متمسك به. لكنني أريده فقط أن يعيش ليعلم أني عندما أحذره من شيء فإنني لا أقول هراءً. أريده أن يتعلم كيف يحترم النصائح التي تُسدى إليه.

كان "عاش" حانقاً. إنهم يحمّلونه فوق طاقته، وكي لا يبقى مكتوف الأيدي أمسك هارون من مؤخرة رأسه، ورفع له رأسه ثم صاح قائلاً:

- كأنه عصفور دوري. إن وزنه لا يتجاوز وزن الريشة.

- كيف عليّ أن أتصرّف، "عاش"؟ سأل بليس وقد نفد صبره. هل تريد أن أسخّن لك ماءً؟

- لِمَ؟

- هـــــــــــــــ...، لا أدري. ربما لتحضير المغلي.

- هل لديك أعشاب خاصة بالمغلي؟

- لدي أعشاب ولكني لا أدري ما نفعها. وعلى كل حال ليس لدينا الخيار.

- إنك على حق. ابدأ بتسخين الماء وأحضر لي الأعشاب التي عندك.

لم يُجِد المغلي أي نفع مع هارون. فهو لا يزال يئن في فراشه المؤلف من الخرق البالية، وقد رق جسده، وبقيت عيناه معكرتين وفمه جامداً، حتى إنه لا يستطيع أن يرمش بعينيه.

- سوف ندعو له، اقترح "عاش ".

- لا أرى ماذا سيصنع الدعاء مع هذه القضية، قالها بليس معبراً عن

سخطه قبل أن يذعن للأمر الواقع.

تجمع الرجال الثلاثة حول المريض، وبدؤوا يدعون له بصمت، كان كل واحد منهم يذكر قديسيه بحماس إلى حد ما. أقبل المساء وهم لا يزالون على حالهم، جاثين على ركبهم، شابكي أيديهم تحت ذقونهم، يحركون شفاههم بآيات بعيدة الاحتمال، ممزوجة بهمسات غامضة وبمقتطفات مؤثرة مشوشَة.

- خطرت على بالي فكرة، قال بليس فجأة. ماذا لو ذهبنا لإحضار أينشتاين؟

- هذا المعتوه؟ قالها "عاش " ساخطاً. إنه قادر على تلويث نهر بالكامل بالسموم التي يصنعها.

- نعم، وماذا بعد؟ لديه وصفات طبية عجيبة من خلال خبرته. سيخبرنا كيف نعتني بهارون.

- لقد تسبب بمقتل كافة حيوانات المنطقة بأدويته الفاسدة.

- هارون يموت. هل أعبر لك عن ذلك بواسطة الرسم؟ سوف يموت أيها الفوضوي! فكل ثانية تبعده عنا مقدار فرسخ.

أمام قلق بليس المروّع، وحالة هارون التي تنذر بالخطر، وعجزه عن اقتراح أي حل بديل، لم يكن أمام "عاش " سوى الإذعان. هو الذي كان يأمل ألا تطأ قدماه الجسر العائم مرة أخرى، ها هو أمام الأمر الواقع. أينشتاين ليس سوى مدمن على قتل الكلاب والقطط الضعيفة، ولكنه الوحيد القادر على تفسير الطلاسم، وعلى التميّيز بين مرض الشقيقة وضربة القضيب.

ففي الحالات الحرجة، يتحتم أن نعترف بموهبة الفاشل ونقرّ بعبقرية المختلّ عقلياً.

أعطى "عاش" الأمر إلى جونيور بملازمة المريض، ثم تقلّد البانجو ودعا بليس ليتبعه باتجاه الجسر العائم.

تبع جونيور بنظره الرجلين وهما يبتعدان حتى لفهما الظلام. وعندما غابا عن ناظريه في ظلمة الليل تحقق أنه بقي وحيداً مع المريض، فاعترض قائلاً:

- نعم ولكنني لست موسيقاراً ولا ساحراً.

بدأ هارون يرتعش من البرد ويتلعثم في الكلام بشكل أقوى فأقوى. كان

يركل برجليه الخرق البالية التي كان ملتحفاً بها، ويدفع عنه الغطاء الذي كان يرتجف تحته، ثم يستند على مرفقه، وقد علا وجهه وميض فوسفوري، وجحظت عيناه. ثم صاح وهو ينظر باتجاه التل:

- ارحلوا من هنا!

نظر جونيور في كافة الاتجاهات من حوله:

- لا يوجد سوى أنت وأنا.

مدّ هارون ذراعيه أمامه وقال :

- انصرفوا من هنا!.. لا أعرفكم.

حملق جونيور بعينيه وأخذ يدقق النظر مِنْ حوله. وعندما لم يجد أي خيال مريب، نهض وراح يدور حول التل.

- لا يوجد أحد يا هارون.

- لقد جاؤوا ليأخذوني. لا أريد أن أتبعهم. اطردهم بعيداً عن هنا. إنهم يخيفونني.

- أؤكد لك أنه لا يوجد أحد هنا.

- بلى، إنهم هنا، في أسفل التل. إنهم ينتحلون شخصية أهلي وأنا لم يكن لدي أهل. لقد ولدت من لا شيء. تغذيت على أشياء قذرة، وشربت ماء المطر. أنا ابن لا أحد. ليدَعوني وشأني.

- لا يوجد أح....

ابتلع جونيور كلماته. خيل إليه أنّه يرى أشباحاً عند أسفل التل. فجأة وقف شعر نقرته بينما شعر بالشوك يخدش ظهره فانتابته القشعريرة. أخذ يغضن جفنيه ليركز نظره، ومن شدة دهشته تبين بوضوح وجود أربعة رجال بلباس قاتم، واقفين على بعد عشرين متراً.

- من أين خرج هؤلاء؟

- لا تدعهم يأخذونني يا جونيور. إنهم يخيفوني بشكل فظيع.

بحث جونيور من حوله، وجد غصناً فالتقطه وتأهب. لم يعره الرجال الأربعة أي أهمية. ظلوا منتصبي القامة بدون حراك في لباسهم الصارم. في هذه

اللحظة بالذات، نزل نيزك من السماء وسقط في البحر. فانبثقت حزمة من النور وسط الأمواج، وبدأت تقترب من الشاطىء. وعندما لامست الأرض، تحوّلت إلى شكل آدمي.

- أمي، قالها هارون بزفرة.

كانت امرأة متقدمة في السن، منهكة وحزينة. صعدت الشاطئ باتجاه التل حيث ينتظر الرجال الأربعة بلباسهم الأسود. نهض هارون ببطء؛ بدأ النور يشع منه هو أيضاً بلطف، كالشعلة الزرقاء، وأخذ وجهه يلمع في الظلام، بينما يرتفع جسده المتموّج وكأنه في عملية استرفاع، وكان شفّافاً لدرجة يستطيع الناظر إليه أن يخترق جسده. مرّ بالقرب من جونيور دون أن يراه وبحدقتيه الواسعتين، اتجه نحو المرأة. نزل كلاهما الشاطئ، يداً بيد، وسارا فوق الماء، حتى ابتعدا في الظلام؛ كانا شبيهين بمصباحي نور خفيفين سرعان ما أطفأهما الريح.

لم يفهم جونيور حقيقة ما جرى، بقي مشدوهاً فاغراً فاه مدة طويلة بعد أن خيم الليل على الشاطئ. لم يبقَ أي أثر للرجال الأربعة عند أسفل التل. فانتفض عندما رأى هارون بدون حراك ممدداً على فراشه البالي، وقد ابيضت عيناه، وبقي فمه مفتوحاً، فقال له:

- كيف فعلت يا هارون لتذهب بصحبة تلك السيدة وأنت لا تزال في مكانك؟ هيا قل لي يا هارون ...(أمسك بذراعه فوجده ليناً وفاتراً، لا يبدي حراكاً، فتركه يسقط على الفراش). هارون...

لكن هارون لم يجبه.

لقد مات هارون.

اقترح بليس أن يُدفن هارون في زريبته حيث قضى حياته، ولم يمانع "عاش". تم عمل حفرة في المكان الذي كان فيه خص المتوفى، ودفن الجثمان، وغُطّي بالرمال كي لا تدنسه الكلاب الشاردة. ثم تجمع الكل وبدؤوا يصلون – الباشا وعصبته، ماما وميموزا الذي كان غارقاً في نومه السباتي داخل عربته ذات العجلة الواحدة، وبعض المشردين عابري الطريق – حتى نيغوس الذي لم يكن يؤمن بهذه الأمور.

- هل تريد أن تلقي كلمة يا بليس؟ سأله "عاش "، هارون كان صديقك.

أخذ بليس يجعد قبعته، ثم حرك رأسه بالنفي.

- ماذا سيجدي ذلك؟ إنه لم يعرني أذناً صاغية في حياته، الآن وقد رحل عنا، هل تتوقع أن يصغي إليّ؟

- ربما تغير منذ ذلك الحين، قال جونيور ليسترضيه.

- لا أعتقد. هارون كان عنيداً. حتى إن الله لم يكن راضياً عن أفعاله.

عند المساء، امتنع "عاش" عن تناول عشائه. اختار أن يتقوقع في زاويته المعهودة كي لا يشعر أحد بوجوده. فموت هارون أثر فيه أيما تأثير. بينما كان يحاول أن يقلّب غمه من كل الأوجه، كان جونيور يصف له بدقة للمرة المليون المشهد الذي رآه قبل موت هارون: الرجال الأربعة الملتحفين بالسواد الداكن الذين كانوا واقفين ينتظرون في أسفل التل، والنيزك الذي كان يمشي على سطح الماء.

- لا يمكن أن تكون رأيت مثل هذه الأشياء يا جونيور، قال له "عاش" وقد نفد صبره. كان هارون في حالة نزاع وهذا ليس بالمرض المعدي.

- بما أنني أؤكّد لك أني رأيتهم كما أراك. حتى إني دلكت عينيّ عدة مرات.

- مستحيل، هذا غير معقول. هذا هراء.

- ليست مشكلتي. لقد رأيت هؤلاء الأشخاص كما رأيت المرأة التي كانت تمشي على سطح الماء، ورأيت هارون ينهض ويوافيها، ثم رأيتهم يبتعدون فوق الأمواج حتى تلاشوا. لم أكن أشكو من ضبابية في الرؤيا، ولم ألتهم أي قذارة.

- حسناً، لم تكن تهذي.

- إنك تقول ذلك كي تتخلّص مني.

- شيء من هذا القبيل.

- ولكن لماذا لا تريد أن تصدقني يا "عاش"؟ كنتُ هناك، أنا. أقسم لك أنني في بداية الأمر لم أكتشف وجودهم، ثم تمكنت من تحديد مكانهم. كانوا موشحين بالسواد، وينتظرون كالجلادين، ففزع هارون وطلب إليهم الرحيل

مرات عديدة، ولكنهم لم يكونوا يصغون إليه. لم أكن أحلم بما أني لم أكن نائماً. كما أني لست غبياً.

- وهل اتهمتك بالغباء؟

- كلا، ولكنك في قرارة نفسك مقتنع بذلك. فلو أكلتُ من علبة هارون لكنتُ اعترفت أني أهذي. غير أني لم أتناول القاذورات. كانت الرؤية لديّ واضحة، ولم أكن ثملاً. لقد حدثتْ أمور غريبة بالأمس. جاء الرجال الملتحفون بالسواد، ثم المرأة وتبعهم هارون. ليس لديّ أي سبب لأكذب. لا أحد يهددني بقطع رقبتي بالسكين.

ضرب "عاش " بعنف البقجة التي كانت معلقة إلى طرف صفيحة معدنية.

- ألا يحصل أنك تفتش عن تفاصيل ثانوية؟ ألا ترى أني بحاجة للهدوء لمدة ثانيتين.

- ما عليك في المرة القادمة إلا أن تصدقني بغير دليل.

- هذا ليس صحيحاً، إنك تقصد ذلك.

- لم أكن أتوهّم "عاش "، فالموضوع مهم، وإلّا فسأصدق أنني أنا أيضاً التقطت مرض هارون وأنني سوف أموت، ولا أريد أن أموت. إنني لا ألمس المعلبات ذات المحتويات المريبة، وأصغي جيداً عندما يوجه إليّ أحدهم النصح، وليس لديّ أي قريب برداء أسود.

تظاهر "عاش" بوضع أسلحته وبالاستسلام.

- حسناً يا جونيور أوافقك الرأي. لن نقضي الليل بهذه القصة. إذا كنت تعتقد أن لديك هلوسات...

- هلوسات حقيقية...

- هلوسات حقيقية، ليس لدي اعتراض. هل ارتحت الآن؟

رفع جونيور أنفه بتكشيرة، وقد بدا عليه الغضب، تفرس بصاحبه وشهق ثم دمدم قائلاً:

- إذاً فهمت قصدك جيداً فأنت لا تهتم لكلامي؟

- سحقاً! ماذا تريدني أن أعمل؟ صاح "عاش" وهو يمسك بالعجلة التي

كان يستند إليها لينهض واقفاً. لقد ضقت ذرعاً بك. إذا كان يروق لك مشاهدة فِيَلَة بلون الزهر في كل حين، فما عليك إلا أن تمتع نظرك كما يحلو لك، ولكن أرجوك دعني وشأني.

- لم تكن فِيَلَة. ما الذي ترويه؟ كانوا أناساً مثلك ومثلي... لماذا تلقي عليّ بقنابلك؟ هل أتعبتك؟

كان "عاش " على وشك أن ينفجر من داخله. فقال وهو يجذب لحيته بغضب:

- حقاً! يفضّل أن أذهب لأنشّط قدمي وأنعش أفكاري... سأتمشى قليلاً على الشاطىء.

- هل آتي معك؟

- كلا! ردّ "عاش" بسرعة وبلهجة حاسمة... ستحجب عني البحر

***

الفصل العاشر

أسدل الليل أستاره.

توارت طيور النورس عن الأنظار وخيّم الهدوء.

بدا الشاطئ وكأنه يستجمع أفكاره، فتأتي دورة الأمواج وتعطل عليه حالة التأمل. كأن البحر صحا من غفلته وأخذ ينوح على ملايين الغرقى الذين ابتلعهم في أعماقه.

وفي مكان أبعد، نجت المنارة من قبضة الضباب، بدت وكأنها من رواد الملاهي الليلية، أخذت تنظر في كل الاتجاهات، وتتحسس طريقها على ضوء الفانوس، ولكنها لم تتقدّم خطوة.

جلس "عاش" كالدرويش واضعاً يديه على ركبتيه. كان لهب المحطبة ينعكس على وجهه بناره الطائشة فكان يشبه وجه ملك مخلوع. كان يصغي باهتمام وبصمت إلى الطبطبة التي تقطع حلكة الظلام.

في الجهة المقابلة، أخذ جونيور يراقب حشرة كبيرة كانت تطير مهتاجة وسط الشرر، وهو ملتحف بمعطفه المتهرئ الذي طمر نفسه فيه.

لا أحد يعلم مع مَن كان "عاش" منهمكاً، فقد لاذ بصمت عنيد. كاد بعض الشرر المضيء أن يصل إليه ولكنه لم يأبه ولم يتحرك؛ كان يصغي بصمت إلى الموجة التي تداعب الشاطئ.

اعتقد جونيور في قرارة نفسه أن الموسيقار قد بالغ في صمته. لا شك أن جماعة "الحُر" يترجمون كل جلبة إلى لحن موسيقي خاص، غير أنه لا يجب أن يبالغوا في الأمر. فالإفراط في الأمور يشوّه الحقائق الأكثر قدسية، ثم لا يعرفون لأي شيطان ينذرون أنفسهم... فما كان منه إلا أن تناول قطعة حديدية بشيء من الغيظ من أثر الحنق الذي سيطر على تصرفاته، وأخذ يدفع بعض الجمرات المنعزلة إلى وسط النار.

لم ينبس "عاش" ببنت شفة منذ غياب الشمس. إنه قابع هنا، منطوٍ على نفسه كالدب العجوز المحشو بالقش، غير آبه لما يدور من حوله. لم يتناول طعام العشاء، ولم يلمس آلته الموسيقية، وفي كل مرة كان يرفع بصره إلى

السماء، كان يشعر بضغينة تجاه كل نجمة من النجوم الموجودة فيها. لا يذكر جونيور قط أن رآه بهذه الحالة من الإحباط. لا أحد ينكر أن موت هارون كان فاجعة للجميع، لكن "عاش" شاعرٌ في النهاية. أليس من أغنياته أن الحياة ليست سوى محنة حمقاء، وأنها لا تستحق العناء، وأنه شيء جميل أن يكون لها نهاية؛ وبما أننا نُخلق رغم إرادتنا، فمن الأولى أن نترك هذا العالم من دون أسف... لقد اعتاد "عاش" عندما كان يهتم لأمر الكبار والصغار، أن يشعر بالفخر وكان وجهه يتّقد كالشعلة. لكن وجهه هذه الأمسية كان كحلكة الليل، حتى إن ضوء المحطبة ينفر من ملامسته... شعر جونيور بالسأم والضجر، فهذا الرجل الذي كان جالساً قبالته بدا له غريبًا عنه، فقال بصوت منخفض:

- لستُ جداراً.

استدار "عاش" وراح يتأمل زاوية من الليل. فبادر جونيور إلى سحق جمرة كبيرة بوحشية وهو يتمتم:

- متى ستشرق اليوم، هذه الشمس المعتوهة؟

انتفخت وجنتا "عاش" بالهواء. كان العتب الذي يوجهه إليه مَن هو في كنفه يزيد من ألمه، وفي الوقت ذاته يحقد على نفسه لأنه نقل حزنه إليه. فهو يعلم علم اليقين أن حالة جونيور النفسية تتأثر بحالته هو شخصياً، وأنه عندما يشتكي من شيء، فإن جونيور يشتكي بقدرين.

أحاط جونيور ركبتيه بيديه، وأسند ذقنه بين ذراعيه، ونظر إلى مياه البحر التي كانت ترتعش قرب الشاطئ.

ساد صمت مريب حول الرجلين، جازف جونيور بقطعه بعد أن نفد صبره:

- كيف هي الجنة يا "عاش"؟

شعر بعزاء كبير عندما أجابه الأعور وهو خائر القوى:

- لم يسبق أن دعاني إليها أحد.

كان هذا كافياً ليشعر جونيور بالحماس، فقال متابعاً:

- ولكن لديك فكرة بسيطة عنها.

- أتوقع أنها بلدة منعزلة رائعة نعيش فيها عيشة هنيّة برعاية المولى تعالى.

- هذا ما توقعته أنا أيضاً... وماذا عن السعير؟

- عقابٌ مضاعف.

لم يفهم جونيور إلى ما يرمي إليه "عاش"، ولم يطلب المزيد من التفسير، كان همه الوحيد يكمن في إخراج الموسيقار من عزلته؛ وقد حقق النجاح الذي كان يصبو إليه. أما الجحيم فإنه يعرف منذ أمد بعيد أنه ليس بالمكان الفاضل. الحرارة فيه مرتفعة جداً، حسب قول بليس، حتى إن صيحات الهالكين فيه تتحول إلى لهيب ما إن تخرج من حدود شفاههم.

- تعتقد يا "عاش" أن هارون في الجنة أم في النار؟

- الأمر الذي أنا متأكد منه هو أن جثمانه بات تحت الأرض.

أذعن جونيور للأمر وامتنع عن الكلام لفترة وجيزة كان يبحث فيها عن أسئلة أخرى كفيلة بإخراج الموسيقار من صمته وعزلته. كانت الأفكار تروح وتجيء في رأسه كأسراب السمك. ثم فقد تسلسل أفكاره للحظة، ولم يعد يتذكر عمَّ كان يتحدث... ثم انتفض مفتعلاً المرح.

- ماذا كنتَ فاعلاً يا "عاش " لو كنت أنت الفرعون؟

- لستُ الفرعون.

- حسناً، ولكن لنفترض ذلك. فماذا كنتَ فاعلاً؟

- ماذا تظنني أنني فاعلٌ؟

- لهذا السبب أسألك. أنت شخص لطيف. ولديك مشاعر نحو الناس الأقل حظاً في هذا العالم، وتتحمل السيئين منهم. فكيف تتصرف لو كنت الفرعون؟ لأن الفرعون يترك الأمور تحتدم، وعندما تسوء الأحوال بشكل خطير يتجاهل الأمر. عندئذٍ يستغلّ الأشرار الفرصة ويسحقون الأبرياء الذين يستحقون الشفقة، لكن لا أحد يرأف لحالهم.

فتح "عاش" ذراعيه للدلالة على عجزه! وقال : لقد أرسل الله عدداً لا بأس به من الأنبياء، كما أرسل عدداً لا بأس به من المعجزات، وعدداً لا بأس به

من الكتب السماوية بهدف أن يستفيق الناس من غفلتهم. فكيف كانت النتيجة؟

- مع ذلك هناك الكثير ممّن يصلّون ولا يزالون مستقيمين!

- تماماً، هناك الكثير من المؤمنين الذين يهرعون إلى الله عند أول مشكلة يقعون فيها. ولكننا لو احتلنا على كل الحمقى المنتشرين على سطح المعمورة وأعطيناهم درهماً، لدمّرنا كل إمبراطوريات العالم. فمنذ زمن سحيق والناس يأكل بعضهم بعضاً. لا يتقنون أي عمل آخر. فالسلام بالنسبة لهم ليس سوى هدنة لتغطية تدابيرهم الانتقامية، والطعنات المخاتلة، والحروب والتعاسة.

فكّر جونيور بكلمات الموسيقار وهو يهز رأسه موافقاً.

وبعد أن أصلح المحطبة، عاد جونيور ليسأل:

- فماذا كنتَ فاعلاً لو كنت في مكان الفرعون يا "عاش"؟

- لا شيء...

- كيف ذلك، لا شيء؟

- ماذا يفيد الأمر؟ فالناس كالبغال.

- وماذا عني؟... هل ستقدم لي الحماية؟

- ضد من؟... فللفرعون مسؤوليات أخرى يا جونيور. لا يستطيع أن يهتمّ بفرد واحد في الوقت الذي يعترض فيه الألوف المؤلفة على مشاريعه.

- سبق أن قلت لي إنك ستقدم لي الحماية مهما كانت الظروف.

- نعم ولكن... الأمر يختلف عندما نكون فراعنة.

- ليس أنت يا "عاش ". فأنت تتمتع بصبر جميل ولن تتخلى عن أصدقائك.

- لست على يقين من ذلك يا جونيور. لو كنت الفرعون...

وصمت فجأة.

انتظر جونيور أن يتم حديثه ولكنه لم يفعل. بدا "عاش" منفعلاً كالموج الصاخب. كان فكاه يتحركان بشكل دائري في وجهه، بينما كانت لحيته تموج كالإعصار في حالة فوران.

- هل أسبب لك الإزعاج إلى هذا الحد، يا "عاش"؟

- كلا لن يصل بي الأمر إلى هذا الحد، ولكنك لست بعيداً عن ذلك.

أحنى جونيور ظهره أكثر فأكثر ووضع ذقنه بين ذراعيه بشكل يدعو إلى الشفقة. أدرك "عاش " أنه جرحه. فحرك هيكله العظمي بإعياء وتابع قائلاً:

- لو كنت الفرعون، لحاولت أن أضع حداً للبلبلة التي تجتاح الأرض. سأضع عرشي في أعالي جبال الهملايا أو في أعلى قمة من جبال كليمنجارو حتى يراني كل الناس، وسأبين للناس عيوبهم بفظاظة. سأقول لهم بأني بدأت أضيق بهم ذرعاً، وأن صبري عليهم لن يطول، وأنه يجب أن يكون المرء مخبولاً حتى إنه ليلتهم قبعته لكي يختار أكثر الأمور ضرراً وأقل العلاجات تأثيراً. سأعرض على أنظارهم تاريخ البشرية، لكي يدركوا إلى أي مدى تجاوز هذيانهم الحدود: سأعرض لهم الحروب، وما يتأتى عنها من بؤس وخراب، ودموع ودماء، وكأن النعم التي يتمتعون بها لم تعد تكفي لإدخال السرور إلى أنفسهم، وكأنهم لا يملكون سوى نشوة القتل العمد لبعضهم بعضاً عند نهاية كل جيل. سأقول لهم : كفى! ثم سأنصحهم أن يأخذوا حذرهم لأنني مللت من لامبالاتهم.

انتهى "عاش"، وهو يلهث، وقد أفرغ ما في جعبته، واحتقن وجهه، واختلج منخراه. كأنه كان يعدو بأقصى سرعة نحو الهدف بين التلال المتشابكة على طول الشاطئ. كان الزبد يطفح من زاويتي شفتيه، بينما تُشبه عينه السليمة عين العملاق الأسطوري الذي فقد أصبعه في فم الأفعوان الخرافي ذي الرؤوس التسعة.

كان جونيور يحلّق في السحب من الفرح، وقد لمعت عيناه واتسعت ابتسامته حتى بدت أوسع من الكوّة. كان يتأمل راعيه كالبائس الذي يجد نفسه فجأة وجهاً لوجه مع رئيسه في يوم الصلاة العظيمة.

- يا للحظ!... أعشقك، ابتهج قائلاً وهو يلوي يديه الصغيرتين القذرتين... إنك تفرقع النار يا "عاش"، فلو كنتَ أنتَ الجحيم لطلبتُ أن تُعذَّب نفسي في الحال... إني أحبك لأجل هذا: عندما تعود إلى طبيعتك، يتبعك العالم بأسره، كالقدور في مؤخرة مركبة عروسين.

دار حول المحطبة، وجلس القرفصاء بين يدي الأعور، مفعماً بالفرح وبعرفان الجميل، وقد غمرته السعادة بعودة "عاش" إليه.

- عندما تلوذ بالصمت، اعترف له قائلاً بصوت أجش، لا أقوى على التنفس. وتغمرني التعاسة لدرجة أحسد فيها هارون حتى على المكان الذي هو فيه.

فتح "عاش" ذراعيه، وارتمى جونيور على صدره الحانـي كالطفل.

- سامحني على غفلتي التي رحت فيها في الأيام الأخيرة. إنها نقاط عبور، إنه الفراغ الذي يجعلك فـي معزل عن الآخرين لفترة وجيزة، ولا نستطيع تجاوزه. هل أنت حاقد عليّ؟

- ليس بعد الآن، يا "عاش". ومن فضلك لا تدعني على الهامش مثلما يضع الشحيح قروشه، لأن هذا يقتلني.

- سأحاول.

- هذا وعد؟

- وعد.

ويرتمي أحدهما في حضن الآخر ليؤلّفا جسداً واحداً.

***

الفصل الحادي عشر

بينما كان نيغوس يتمشّى على المنحدر وقد لاح الأفق أمامه كمسرح عملي، غمره شعور بأنه يغزو بلدة في كل خطوة يخطوها، يسبقه فيها ظله كحارس إمبراطوري. إنه يتقدم بخطىً عسكرية وعيناه تتلألآن مقتنعاً أن السماء لا ترنو إلّا إليه. كان أحياناً يتوقف على قمة كثيب يفتح ذراعيه ليحتضن النسيم، ويطلق صرخة تقشعر لها جلود الكلاب الشاردة في الجوار. ثم بعد أن أفرغ هذا الشيء الذي لا يُسبر غوره، والذي كان يشوه سحنته عادة، اندفع بسرعة نحو أصدقائه المشردين الذين كانوا غارقين في اللاوعي العرقي إلى جانب الصخرة الكبيرة.

يعتلي الباشا مقعده في عربة الموتى - التي حملها ديب على منكبيه من القصر حتى المنحدر كـي يبرهن للمعلم عن مدى الاحترام الذي يكنه له. منذ رجوع عشيقه، تعقّل الباشا وتوقّف عن توبيخ مَن حوله. لقد أكل هذا الصباح كأربعة أشخاص، وتجرّع زجاجتين كاملتين من ماء الحياة أفقدتاه وعيه، وأخذ يرمق البحر كما يرنو السلطان إلى مروج مملكته الخضراء. اندس بيبو عند قدميه بحنان ومال على فخذه أثناء نومه بينما كانت طيات الأمواج تؤرجحه. ويترابط الباقون من حولهما، وقد انحرفت عيونهم من شدة السكر، بينما أوشك آخرون أن يضمّ بعضهم بعضاً، منهم كلوفيس، وإيتسيتيرا، والإخوة زوج، وأينشتاين، وديب، وجونيور الذي تمكن من الهروب من الموسيقار، وثلاثة من جامعي الخرق البالية، ألقت بهم الصدفة هنا لأنها لم تعد تدري ما تفعل بهم... وقد استسلم كل هؤلاء الناس للريح تسلخ بشرتهم كالسياط، ينتظرون ظاهرة إلهية غامضة تأتيهم من عرض الأفق.

نزع أينشتاين عنه ثيابه، وأخذ يقلّب فـي خرجه بحرارة وقد علقت لؤلؤة فـي أرنبة أنفه. إنه لا يتذكر أين حفظ مقادير وصفته الأخيرة، ويراوده شكٌ أن أحد الحاسدين قد اختلسها منه. عندما وصل نيغوس بمحاذاته، بادر إلى جمع بطانة خرجه، وضمها إليه بحرص وكأنها كنزه الضائع.

رمقه نيغوس ببعض الشفقة وقال له:

- اعتنِ بمظهرك أيها الفوضوي، إنك تبدو كشجرة عارية في الشتاء، لا

ينقصك إلا الحبل كـي تشنق نفسك.

انحنى ديب على الباشا ليتأكد إن كان غافياً، ولما لاحظ أنه ما يزال يقظاً زمّ شفتيه متمتماً:

- كم تشبه الإمبراطور، أيها المعلم. فنهره الباشا قائلاً:

- لا تمزح.

- أبداً سيدي، تبدو هيئتك غريبة، أقسم على ذلك، وأنت جالس على مقعدك وقد رسمتَ هذه العظمة على قسمات وجهك وكأنك تنتظر من الملوك أن يبايعوك. لو كنتُ رساماً لَخلّدتُ هيئتك في لوحة تتنازع عليها المتاحف بالملايين.

لدى سماع ذلك رفع الباشا رأسه ونفخ صدره، وقد اتسعت فتحتا أنفه من الغرور، وصرّح قائلاً:

- أنا ملك العالم.

سُرّ ديب بهذا القول، لأنه كان من النادر أن يعيره الباشا اهتمامه دون أن يحطّ من قدره في الدقيقة التي تليها. أخذ يزحف على مؤخرته لكي يلفت إليه الأنظار، بعد أن طلب من إيتسيتيرا أن يتنحى جانباً كـي لا يحجب عنه المعلم، ثم تابع وعيناه تلمعان من التملُّق.

- إنك لا تحتاج حتى لتصويت ليتم تنصيبك أيها الرئيس. هل تتخيّل لو كانت الأرض المقفرة بلداً معيناً ونحن كلنا وزراؤك، بعَلَم وحدود وجيش؟... هل تتخيّل المنظر الذي سنكون عليه؟... سيتزعم أيَنشتاين البحث العلمي، وإيتسيتيرا في وزارة المحاربين القدماء، حتى لو بُتِر ذراعه نتيجة إصابة عمل، وأنا رئيس التشريفات، بيبو وزيراً للداخلية والإدارة المحلية، ونيغوس قائداً للقوات المسلحة...

قال الباشا: أنا يروق لي ما أنا عليه...

ألحّ ديب وقد سال لعابه من التملّق الوقح:

- لِمَ لا يا سيدي؟

- نيغوس رئيساً للقوات المسلحة؟ أليست الأمور على ما يرام؟ إنه بعقليته

الإفريقية قد يطيح بي بانقلاب قبل أن أنتهي من أداء القسم.

تلقى نيغوس الإهانة بكل وقار، وتظاهر بأنه لم يسمع شيئاً، بينما برقت في عينيه ومضة جشع؛ بدا وكأنه فخور لشعوره بأنه يشكل خطراً كامناً في نظر الباشا.

استدار ديب نحو العسكري.

- هل ستفعل ذلك؟

غمغم نيغوس من أطراف شفتيه:

- سأزعج نفسي بعبء القيام بذلك.

وعلى هذا استدار ناحية البحر، تراءت له فجأة الأمواج الغامضة المتلاطمة كأنها جماعات تتقدم نحو المدينة وقد تفاقم خطرها. أما هو، فقد ترأس حشود الزبد الأبيض القادمة من عرض البحر بخوذته الفضية، ملوّحاً بسيفه، ممتطياً جواده الغازي، وقد أسكرته البطولات والملاحم، ثم صرّح قائلاً:

- السلطة الوحيدة التي تستحق أن تعتبر كذلك هي التي تُحَصّل بالقوة. قصص الاقتراع هذه لا تصدق. فـي حال تمّ انتخابك، فأنت ملزم بتقديم تقارير، وإذا لم تفِ بوعودك على أكمل وجه سيكون لديك استبيانات قد تؤدّي بك إلى الحضيض، ونقابات تعترض على قراراتك، وقد تضطر إلى الانسحاب عندما تزيد الأمور عن حدها. ولكنك عندما تستولـي على السلطة بالقوة فلن يجرؤ أحد على تحديك، أنت ديكتاتوري بشكل كامل، وتتحكّم بالناس حسب رغبتك. وإذا ظهر عدد من المتذمرين، أخضعتهم لصنوف العذاب حتى يصابوا بالعَتَه، أو أنك تصلبهم في الساحة ليكونوا عبرة لغيرهم. إن الشعوب كالقطعان: ما أن تبتعد عنزة شاردة عن ناظريك حتى تسدد الذئاب حسابك على الفور. إذا كتب عليّ أن أحكم في يوم من الأيام سيكون ذلك دون مشاركة من أحد ودون شروط. أول من يجرؤ على التمرّد أوقعه فـي المصيدة، أضاف ملمّحاً للباشا. يا للعجب، لو أن كل هذه الأمواج كانت جنودي وآلياتي البرمائية لاستوليت على البلد قبل حلول الليل، ستهتف لي الجماهير، بينما سيتأرجـح أعيان البلد على مشانقهم المنصوبة على أعمدة المدينة الرئيسية.

- ومن ثمّ؟ زمجر صوت من وراء ظهره.

ظهر فجـأة كناية عن "موسى" من حيث لا ندري، واطئاً المجموعة وواقفاً فوق جبل من الحصى. خيل إلى نيغوس أنه يرى أشياء غير موجودة. فقرص نفسه حتى سال الدم لعله يصحو من غفوته. لكن الرؤيا لم تتلاشَ، بل على العكس تشبثت أكثر بعضلات ساقيه، وبسطت ذراعيها في حركة مسرحية عريضة.

- وماذا بعد ذلك؟ كرر السؤال. لنفترض أن هذه الأمواج هي عربات الهجوم التي تعمل تحت إمرتك، وأنك بسطت نفوذك على البلد... فماذا أنت فاعل؟

قطّب الباشا حاجبيه وقد استعاد شيئاً من رشده.

- من أين خرج هذا؟

كان الرجل مارداً ملتحفاً بقفطان شديد البياض. وكانت خصلات شعره التي خطها المشيب تنحدر كالشلّال على صدره وكأنها ثلج مصبوب. وتُرى من خـلال وجهه الضخم الباهت، خطوط عروقه الزرقاء التي تمر تحت بشرته، وكانت عيناه صافيتين تنعكس فيهما أشعة الشمس كالمرآة.

أخذ يقترب من المجموعة وهو لا يكاد يلامس الأرض، وقد امتلأ قفطانه بالهواء مثل الشراع.

بدأ رفاق الباشا يصحون من سكرتهم الواحد تلو الآخر. كان أولهم الأخوان زوج، اللذان رسما إشارة الصليب فور استردادهما وعيهما، ثم كلوفيس الذي لملم نفسه مذعوراً من الدخيل، وإيتسيتيرا الذي يشعر بتنميل على طول ذراعه الموهوم؛ أما جونيور فكان مصعوقاً للوهلة الأولى، وأخذ يتساءل إذا كان ذلك الشخص هو نفسه الذي خرج من النجمة المذنّبة ليلة وفاة هارون، ثم عندما لاحظ أنه لم يلمس علبة الكونسروة منذ دهور، تخلّى عن هذه الفرضية، واكتفى بأن يلتهم بعينيه هذا المارد الضوئي، الذي بدا أنه نزل لتوّه من الشمس.

مسح المجهول يده الجليلة على لحيته قبل أن يغيظ بعينيه الزرقاوين الرؤوس المطأطئة، ويجعل الأسارير تنفرج من حوله. ودون سابق إنذار فتح ذراعيه اللتين تبدوان بلا نهاية، ونطق بصوت جهوري أرعب السامعين:

- لم تأت الحرب بالخير أبداً، قالها لنيغوس الذي بدا عليه الذهول. ليس

أمامها إلّا رسالة واحدة: أن تطردنا من بلادنا... إن-ي أشعر بالسخط عندما أسمعك تطالب بإلحاح بالحرب وكأنها بَرَكة... إنك من دون شك لا تدري عما تتحدث... أما أنا فأعرف: لقد قدتُ جيوشاً حتى أنهكت قواها. وتذوقتُ طعم النصر، ووجدتُ ف-ي نهايته طعماً مراً... وعند نهاية المعارك، عُلِّقتْ على صدري دروع من الأوسمة وشظايا القذائف، وطُلب إليّ الصعود إلى المنصة لتحية شعبي السعيد. بينما كنتُ أصعدُ سلّم المنصة وتتغنى الملائكة بمديحي، لم يتناهَ إلى سمعي إلا رنين أوسمتي كقائد كان عزفُها أعلى من صوت أبواق الاحتفال. وغمرني شعور بالفخر يعلو شعور الأبطال مجتمعين، لأن أحداً فيهم تلك اللحظة لم يكن ليتمتع بطلعتي البهية. وغطت الحشود من حولي عباب السماء. ألم أكن أنا الذي ربحتُ المعارك والحروب، ودوّنتُ التاريخ بدم الأعداء، ووضعتُ الثرثرة والنميمة تحت الأختام؟... بينما كنت أفتح جناحَ-ي الصقر لتهدئة الهاتفين، كنت على يقين أنني أرمي حبالي على القلوب والعقول. كانت النساء يشعرن بتلاشي الذات لمجرد أن تلتقي أعينهن بمقلتيّ. كنت أجسِّد النشوة، ورعشة الجماع والهذيان، والقدسيات المُطْلقة. لم أعد أدري ما الذي قلته تلك الأمسية. أعتقد أنني لم أنبس ببنت شفة. أدركتِ الجماهير أن حياتها متعلقة بشخصي. كنت أشكّل رمز النصر للكبار والصغار، للأرامل والعرائس، وكنت أيضاً أشكِّل رمز النصر لمن لا يستحق شحذ أسلحتي. كانت ذيول معطفي كقائد تضرب أقوى من آلاف الأعلام التي تزين شوارع المدينة. أما نجوم أوسمتي فكانت تضاهي نجوم السماء. كنت بكل بساطة آتياً من الفضاء... ثم هدأ الاحتفال، وكل عاد إلى بيته. ولما ركنتُ إلى نفسي في أحيائ-ي التي باتت خ-الية فج-أة وقد انسحبتْ ح-اشيتي، ووجدتُ نفسي وحيداً أمام المرآة وسط سكون قصري السحيق، قلتُ في نفسي: "لقد ربحتُ، وقمعتُ، وغزوتُ... فماذا أنا فاعلٌ بعد؟..."

ثم انحنى نحو كلوفيس الذي قصّر رقبته وأرعد:

- أيقنتُ عند ذلك أن المجد ليس إلّا برهانٌ على بقائنا رهائن كبريائنا. نحن نخرِّب السكينة لاعتقادنا أننا ننسج الأساطير. نسقطُ في الهوة بينما يخالجنا الاعتقاد أننا نمحق قلقنا. إننا نسود على الأنقاض كما تنقضّ النسور على الجيَف...

- انتبه! صرخ فيه الباشا. مَن تحسب نفسك حتى تأتي لإغاظتنا بثرثرتك؟

انحنى المجهول بنبل وقال:

- أنا أُدعى ابن آدم، الرجل الأبدي. عرفتُ كل الدهور، وكل الممالك؛ عرفتُ العصور الذهبية، كما عرفتُ عصور الانحطاط. سكنتُ الكهوف في مدخل مغارتي وفي يدي عظمة وحش، كانت بمثابة عصاي الملكية؛ اصطدتُ الماموث في أعماق الجليد؛ وأكلتُ التماسيح الأميركية في المروج الموحشة؛ نحتُّ الحجارة على مقابر الآشوريين؛ وقرأتُ السحر المنحوت على التماثيل؛ كنتُ في آن واحد كل شيء ولا شيء؛ كنت محارباً يابانياً من العهد الإقطاعي لمقاومة الميكادو، ومهرجاً، وراهباً بوذياً، وسافلاً؛ كنت شاعراً، ويهودياً مشرداً وفقيراً، قزماً متحمساً وكاهناً يونانياً، وجندياً مرتجفاً من البرد وراء هراوته، ذواقاً لدى الفراعنة، راوي المغامرات الجيدة عند التقاء الطرق، مستكشف الينابيع في عرض التينيريه في صحراء نيجيريا، وساحراً فاشلاً دون منازع ولا مدرب؛ مفتياً في سمرقند، ومهرباً في أمازونيا؛ أحياناً جلاداً وأحياناً مُعَذَّباً. عرفتُ قياصرة روسيا، نَحّيتُ العمالقة، وعظّمتُ الظُلّام، وأضللتُ القديسين. تكبّرتُ على المطربات المشهورات، وزحفتُ أمام الزناة، غرّرتُ بالملكات، وخُدعتُ من قبل المخصيين. ركبتُ الخيول، والبغال الهرمة، وبساط الريح، وأحادي القرن المجنح، والثيران الخاملة. داعبَتْ يداي الحرير، والحجر الخرافـي، والخناجر الدمشقية، وكؤوس الكريستال. أعادتْ أصابعي اكتشاف صدور العذارى المقدسة، وشعر الحوريات، والشفاه المرتجفة للمراهقين المستسلمين. حلمتُ كما يحلم ألف يتيم، وبكيتُ كما تبكي ألف أرملة، وترنمتُ ملء شدقيّ بالأغنيات الهابطة وأناشيد الموتـى. أما منكبيّ اللذان حطّ بهما الزمن فقد رفعا جبالاً فـي الماضي. عيناي اللتان أذابتهما ذكريات ونكبات الزمن غالباً ما امتد نظرهما إلى ما بعد التنبؤات. من جيلٍ إلى جيل، منذ أقدم العصور، رأيتُ إمبراطوريات تكبر كالفطر، وحضارات تزول أسرع من لعبة خفة اليد. ولكن أين ما جبتُ، وحكمتُ وظلمتُ... حيثما زرعتُ، وحصدتُ أو فشلتُ... فـي الدورات المضيئة كما فـي الدورات المظلمة، التقيت بنفس الرجال الذين فقدوا عقولهم كما فقدوا نور بصائرهم، غير آبهين لتحقيق خلاصهم المفترض...

كان الحضور مشدوهاً، مطبقاً على شفتيه، كأنه وقع تحت تأثير التنويم المغناطيسي، كان صوت المجهول يوحـي بغناء عروس البحر وسط السكون الكوني للصخرة الكبرى التي تزاوجت مع طيات الأمواج. لقد شاط لسان كلوفيس منها، وأصاب التنميل ذراع إيتسيتيرا الموهوم، أما الأخوان زوج فقد أمسكا بأيدي بعضهما كأنهما ذئبان شلّهما الخوف. ولم يتوقّف ديب عن التنقل بين رئيسه والدخيل ليرى على من ستنصبّ الصاعقة.

أخذ المجهول يحدّق في وجه نيغوس الذي تحصّن في وضعية جامدة، ثم نظر بازدراء إلى أينشتاين الذي أصابه الجمود من شدة الارتباك، وانتقل إلى جونيور الذي انفرجت أسارير وجهه الشاحب عن ابتسامة عريضة بلهاء. وأخيراً رسم قوساً في الهواء بيده الكبيرة متجاهلاً الباشا تماماً، واسترسل قائلاً:

ـ كان يوجد هنا في الماضي، فوق هذه الأرض المقفرة، مرفأ فينيقي، ومنازل أنيقة، وأسواق تعج بالزبائن، وفي نفس المكان حيث أنتم تثملون كالدواب من جراء خمرة سيئة اللون والطعم، كان يوجد أنتم، أنتم كما أنتم، أي أنتَ وأنتَ وأنتَ وأنتَ، كلكم كما أنتم، متخذين الهيئة الجنائزية نفسها كقناع ينذر بالموت... إنـي أتساءل لماذا لا نستطيع استخلاص العبر بينما تُعلّمنا الحياة أشياء كثيرة عن صنع الله فـي كل يوم جديد. وها أنا اليوم أيضاً أراكم تنفقون كالدواب المهملة، ولم أحصل بعد على الإجابة.

قال الباشا: هذا ليس صحيحاً، أنا أهلوس. من أين تخرج أيها القذر؟

ويجيبه ابن آدم:

ـ من ذاكرة الزمن... أنا الإنسان الخالد... أعرفكم جميعاً فرداً، فرداً، أعرف قصتكم منذ زمن الكهوف البدائية إلى مقصلة اليوم الأخير في هذه الحياة.

ـ صه! قاطعه الباشا وهو ينهض فـي خضم الحمم واحتدام الغضب. هل ابتلعت مذياعاً أم ماذا؟ لماذا جئت تسبّب لنا الضجر والسأم داخل أملاكنا؟ أنت فوق أرضي يا بني، هل تدري على الأقل مع مَن تتحدث؟

عندما وقف الباشا لاحظ أن قامة الدخيل تفوقه بطولها بمقدار رأسين، مما جعل حماسه يبرد على الفور. كان المجهول يجسّد قوة الطبيعة، بفكيه اللذين

يشبهان الرخ-ى، وقبضتيه القويتين اللتين تشبهان صخرة من الغرانيت. لن يكون سوى لقمة سائغة بتهوره بإلقائه بنفسه بين يديه.

- ابقَ حيث أنت يا بياض الثلج! صرخ الباشا بعظمة ليخفي تراجعه، والا سأدوس بقدميّ على جسدك حتى أخرج أمعاءك من أذنيك. (واستدار نحو جماعته ووجهه يختلج من التقلصات الشديدة). هل تعرفه يا أينشتاين؟

- أبداً.

- وأنت، بيبو؟

- لم أره قط في حياتي البائسة.

- وأنت إيتسيتيرا؟

- لا أدري حتى أي لغة يتكلّم. فأجاب الدخيل:

- أنا أعرفكم حق المعرفة، كلكم على حقيقتكم، أنت إيتسيتيرا أيها المرافق القديم الذي فقد ذراعه بنفس اللحظة التي فقد فيها كبرياءه، أنت فتى رائع. لقد توقفتَ عن الحراسة مبكراً لأنك لم تؤمن أبداً بحسن طالعك. أعرفك جيداً. أنت تخذلني لأنك تساوي أكثر من الأسمال البالية التي تحولتَ إليها... وأنت بيبو، لقد كان حلمك فـي متناول يدك كما لو أنه يكمن بأطراف أصابعك، ولكنك بدّدته من شدة الضربات التي سدّدتها. كان العالم بأسره تحت قدميك ولكنك دست عليه. أعرفك جيداً يا صديقي. كانت صورتك تزين كل الإعلانات، وكنت تحرّك الجماهير كما تحرّك المغرفة الحساء الشعبي. ولأنك لم تعرف كيف يتم التخطيط آلت بك الأمور إلى الحضيض. وأنتما أيها الأخوان زوج، الدابتان التائهتان المولودتان من العدم والبؤس، لم يرضَ أي سيرك ولا أي أسرة الاحتفاظ بكما أو حتى استقبالكما. أعرفكما حق المعرفة. وأنت أيها الباشا...

كان هذا الأخير قد اقتلع نتوءاً وزمجر مذعوراً لخوفه من أن يُفتضح أمره:

- كلمة واحدة، كلمة واحدة فقط عني مهما كانت صغيرة، أقسم أني سأجتث رقبتك.

رفع ابن آدم يديه بمحاذاة منكبيه حتى يهدّئ اللعبة.

- لم آتِ إلى هنا بصفتي عدواً.

- أجهز عليه! دمدم نيغوس متوجهاً إلى الباشا. ألا تفهم؟ يدّعي أنه يعرفنا في الوقت الذي كنا نجهل فيه حتى مجرد وجوده. كيف له أن يعرفنا برأيك؟ إنه جاسوس. لو كان كذلك فهذا يعني أنه يحتفظ بملفات عن كل واحد منّا. لست أؤمن بالصدفة، حتى ولا بقصص المنجمين. أنا متأكّد أنه عميل. لو كنتُ مكانك لأجهزت عليه رمياً بالرصاص، وعلى الفور.

- لستُ جاسوساً ولا أضمر لكم الشر. جئت لأنقذكم من أنفسكم. جئت أقول لكم إن الفشل منوط بالموت، وأنه طالما كانت الحياة تنبض في عروقنا يجدر بنا أن نعاود النهوض بعد سقوطنا. انظروا إلى ما صرتم إليه: ظلال نتنة، بائسة مشرفة على الموت.

- عم يتحدّث هذا الأحمق؟ صرخ الباشا، بماذا يقحم نفسه؟ هل استدعاه أحد؟

- أنا...

- لا تضجرنا!... ستُطرد من هنا، وفي الحال... نحن نعيش حياة هادئة، ولا نطلب مساعدة من أحد، وأنت تعاود الكرّة كما لو كنت في طاحونة دون إذن ودون مراعاة لمشاعرنا حتى صممت آذاننا.

- طالما أنني قلت لك إنّني جئتك كصديق، قال الدخيل بنبرة أخوية. إنه القدر الذي أرسلني. أنا صوت خـلاصكم. سأعلمكم كيف تنجون من الهوة السحيقة وكيف تتخلصون من هذا القالب الذي يحتجزكم سجناء لانحلالكم الأخلاقي ولاحتقاركم لشخصكم. لا يحق لأي أحد أن يعطي ظهره للعالم، من واجبه أن يواجه عدوه وأن ينتصر عليه، لأن التضحية المثلى لا تتضمن هدر الحياة بل أن نحبها رغم كل شيء. كيف يمكننا أن نتخلّص من صخب الأيام عندما تكون هذه الضجة هي نشيد الانتصار على الذات؟ كيف يمكن أن ينتهي بنا الأمر إلى أماكن مقزّزة في الوقت الذي يكفينا أن نؤمن بالجمال حتى نتجدّد وفق الفصول؟ إن تقبّلكم للبؤس هو عمل ضد الطبيعة. أنتم أصحاء الجسد والعقل، لذا فأنتم مخولون للقضاء على تقلبات الدهر والانطلاق بخطىً واثقة إلى غزو أحـلامكم المصادرة وآمالكم المقصاة. عودوا إلى العالم وسيُطوَّع العالم لأجلكم... أين نساؤكم وأولادكم؟ أين محبيكم ومشاريعكم؟ ماذا فعلتم بطموحاتكم، ما هو الحال الذي آلت إليه آمالكم وتحدياتكم وعهودكم

والتزاماتكم؟

كاد الباشا أن يخرج عن طوره إلّا أن ضخامة الدخيل التي تشبه هرقل أثنته عن المخاطرة بنفسه. وقد لاحظ ديب جبن سيّده فحاول إنقاذه.

- لا تفقد أعصابك بسبب هذا الغبي يا سيدي، إنه حتى لا يستحق أن تبصق عليه.

فشرح ابن آدم:

- أنا فرصتكم الثانية يا إخواني، ولكن لن تُقبل التوبة إلّا من النفوس الراضية. أنا لا أجبر أحداَ. إني ذاهب إلى الشاطئ، ومن هناك سأمارس عملي، فمن يريد أن ينجو من بؤرته فعلى الرحب والسعة. سأعلّمه كيف يستعيد طعم الحياة.

- اعلم أن حياتك معلقة بخيط واحد، حذره الباشا. من مصلحتك أن تغادر المكان. هيّا أيها الحاك-ي المتنقل.

تراج-ع ابن آدم ثلاث خطوات رافعاً يديه مجدَّداً بمستوى منكبيه كي يهدّئ العقول.

- يمكننا أن نحجب وجهنا، ولكن هذا لن يخفي معالم أحد منّا، فلكلٍ منّا ساعة الحقيقة. وأنا أجسِّد الحقيقة. حقيقتكم أنتم. بإمكانكم صفق الباب في وجهي، رجمي، أو محاولة التملّص مني، فأنا محكوم عليّ أن أمسك بكم ثانية.

أدّى التحية ليسلّم على الحضور، تراج-ع القهقرى وبعد أن حدّق بالبؤساء الذين حملقوا فيه بدورهم بعيون متسعة مثل صحن القهوة، دار على عقبيه ومشى بخطىً ثابتة على الشاطئ مدمدماً:

- أنا الرجل الأبدي، الذي بواسطته تحدث الكوارث والمعجزات. أعرف كل الأسرار وكل الحلول. لقد قدتُ أمماً وقطعاناً، وعشتُ حياة الأمراء وحياة البائسين. كنت مصارعاً أرتوي من سيفي بدماء المقهورين التي تسيل من العروق والصدوغ. كنت قادراً على طرد الشياطين وكنت أفوقهم بالدناءة مئة مرة، وكانت تعاويذي تولّد الأعاصير، وكنت كاهناً آزتيكياً في أعالي الأهرامات، وكنت أقرب إلى النجوم من الآلهة والأراوح، وكنت غنياً بقدر ما

كان كريزوس، وفقيراً تماماً مثل يعقوب. تشاجرتُ مع الكلاب على قوتي، وأكلَ الحكّام من يدي...؛ كنت كاهناً يستحضر الأرواح، ووزيراً أسطورياً، كنت حمّالاً وتافهاً حقيراً؛ صياد فخاخ ألاحق العقبان؛ أنحدر من قبائل سيوكس الأميركية التي لا تُقهر على أبواب القنوات العظمى، كنتُ حاوياً للجرذان والثعابين؛ كنت مورمونياً([2])، وكانت لحيتي أعرض من مريولي؛ كنت أرضي زوجاتي كل ليلة دون هدنة أو راحة، وكانت الثمالة والآهات هي صلواتـي... كنت نخاساً فـي سوق الجزائر، لصاً وخـازناً فـي بغداد، وعشيقاً للرجال الغارقين في الظلام... عرفتُ كل الانتصارات والأفراح، وأشكال الحكم الخرافية، وطرق الآلام،... كنت كل شيء ولا شيء في آن واحد، دون أن أذعن للاستسلام...

كانت الريح تتناقل أصداء صوته فتجعله يرتجف بينما ترسم ذراعاه في الفراغ الدوائر الوهمية لرقصة صوفية.

كان يجب انتظار اختفاء خياله العملاق خلف الكثبان حتى تعود الأمور إلى نصابها فوق الصخرة الكبرى.

***

الفصل الثاني عشر

نهض جونيور عند بزوغ الفجر.

إنه لا يزال مندهشاً.

لقد اعتاد أن ينسى نفسه تحت الغطاء حتى يأتي "عاش" فيلقي به خارجاً... ولكنه ذاك الصباح، شعر بالسعادة لنهوضه في ساعة لا يزال السكون فيها يخيّم على الأرض المقفرة، حتى الكلاب التائهة تبقى مختبئة.

في حقيقة الأمر، منذ أن تمدّد جونيور على فراشه، كان يرقب بزوغ ضوء النهار وهو يعدّ على أصابعه التي تشبه أصابع الخلد، الدقائق والساعات. كان فـي عجلة من أمره ليمضي إلى الشاطئ، ويستمتع في حضرة تلك الشخصية الزاهية الألوان، القادمة من حيث لا ندري، والتي تتكلم كالرُّسُل.

إنه يعتقد أنه لم يفهم الكثير من تلك العبارات اللاذعة التي تطايرت باتجاه الباشا وجماعته لتسكت أفواههم، ولكنه رغم ذلك أحبها. كانت موسيقى الأفعال غالباً ما تأسره، وبالأمس شعر بالاستمتاع على الصخرة الكبرى.

لقد حثّ خطاه للوصول إلى الشاطئ، يغمره فرح لامتناهٍ ليراقب الرجل الأبدي الذي وقع اختياره على جانب من رصيف التحميل، خلف الجسر القديم.

لم يجد جونيور في تلك اللحظة، الشجاعة الكافية للاقتراب منه. فابن آدم شخصية مؤثرة. كان الشرر يتطاير من نظرته، وفمه يلفظ ناراً. يخشى جونيور أن يحترق كالقشة لو اقترب منه وسط الحشود، لهذا السبب اختار أن يحتل كثيباً على بعد مئة متر وأن يراقب عن بعد هذا الرجل الغريب القادم من الشمس.

لم يُضع ابن آدم وقته، لقد أحاط نفسه برعاية، ووقف وسط مجموعة من المشردين بثيابهم الرثّة، مطلقاً العنان لمواعظه الرنّانة التي يصحبها بحركات منتظمة كأنها سلم موسيقيّ. كان الحضور يصغون إليه بانتباه كبير. عبثاً أصاخ جونيور أذنه ليستمع لبعض الكلمات، ولكنه لم يظفر سوى بصوت الريح وهي تجرف الأمواج في عرض البحر.

عندما انتصف النهار، تفرق العاطلون عن العمل بصمت وقد أسكرتهم

الكلمات الطيبة، وعاد ابن آدم الذي كان كالرمز في ردائه ذي البريق الحريري، عاد إلى مغارته تاركاً رصيف التحميل، وقد انتابته فجأة خيبة أمل من جرّاء تفاهة الأشخاص والأشياء.

لقد أُسْدِل الستار بالنسبة لجونيور، ولحق بـ"عاش" على مضض، فبادره هذا الأخير بالسؤال:

- أين ذهبت؟ إني أبحث عنك منذ ساعات طويلة.

- كنت على الشاطئ، أجاب جونيور ساخطاً، هل هذا محظور؟

- ألم تكن تذهب أحياناً إلى الطرف الآخر من الطريق، كي تروّض السيارات؟

- تلك قصة قديمة. لا أرغب أن أدق عظام عنقي.

- قل هذا الهراء لغيري!... إذ ليس من عادتك أن تنهض في الوقت الذي تُقاد فيه الطرائد إلى قنّاصها.

رفع جونيور كتفيه، إنه لا ينوي الخوض في هذا الحديث، فذلك قد يحوّل "عاش" إلى إنسان مزعج. ثم إنه لا يفكر سوى بابن آدم ولا يريد أن تتناقل الألسن أفكاره الممتلئة بهذا الشخص العظيم ذي الصوت الفضائي والعينين بلون الشفق، الذي يصور الإنسان أفضل من أي شخص آخر، والذي ما أن وصل للأرض المقفرة حتى أعاد لها ما صادرته منها المزبلة والرائحة النتنة والضجر. يريد جونيور أن يطوي الليل جناحه على عجل وأن يبزغ ضوء النهار ليعود إلى الشاطئ ويرى هذا الكائن الخيالي يجمع الحفاة، ويروي لهم أشياء جميلة، يغيب مقصودها عن عامة المشردين وتبقى ممتعة مثل كم هائل من المدائح.

وفي اليوم التالي لدى استيقاظه، لاحظ "عاش" اختفاء جونيور. تحسّس الغطاء الخشن فوجده بارداً، فنادى الفتى الذي يرعاه، ولكن بلا جدوى. خرج إلى الباحة وبحث تحت الخيمة الصفراء، خلف الأدغال المحيطة بما يشبه بيت الخلاء... لكن الساذج كان قد تبخّر...

- لا بدّ أنه في جانب الطريق يروّض السيارات، استنتج الأعور وهو يدير فكيه، مقرراً اللحاق به وشدّ أذنيه حتى يطرد من رأسه النيّات المظلمة التي

تعشش فيه الواحدة تلو الأخرى.

ولكن جونيور لا يهتم بالسيارات المسعورة التي تركض في كل الاتجاهات. إنه يجلس القرفصاء فوق الكثيب الذي يطل على المغارة التي يقيم فيها ابن آدم، ويحلم بهدوء كالعصفور الدوري الجاثم على غصن شجرة. بل إنه يشعر بالغيرة من تلك المجموعة من الطفيليات التي تنتشر حول الخطيب كأنها النحل، ويتخيّل نفسه واحداً منهم، وقد تضخم سمعه ليذوب في الموعظة الحسنة كما تتلاشى الهموم في الثمالة...

وعندما انتهت الموعظة، وابتعد "الرعايا"، حزم جونيور أمره ونزل بسرعة عن التل.

كان الطقس جميلاً، والبحر هادئاً والسماء زرقاء صافية.

تأمل ابن آدم الأفق لمدة طويلة قبل أن يزرع الساحل ذهاباً وإياباً، تاركاً شعره يتطاير في الهواء. إنه يلتقط من حين لآخر حصاة ويرمي بها إلى الأمواج. فتطفو القذيفة على سطح الماء محدثة دوائر كثيرة قبل أن تغرق في الأعماق، فيرافق ابن آدم كل حركة بدعاء... إنه وبكل بساطة، شخص رائع.

مشى جونيور خلف المارد المضيء محرزاً تقدماً في الخفاء. واتسع الساحل أمامهما كالأرض الموعودة.

- مِمَ أنت خائف؟ سأله ابن آدم وهو يتابع سيره.

تظاهر جونيور بالالتفات كما لو أن هذا المارد كان يقصد شخصا آخر.

- إني أتحدّث إليك.

- إليّ أنا؟

- منذ برهة وأنت تحاول اللحاق بـي دون أن تتجرأ الاقتراب مني. أتعتقد أني لم ألحظ ذلك؟ تعالَ إلى جانبي ولا تجزع. أتخجل مني لهذه الدرجة؟

اقترب جونيور وهو يعتصر أصابعه.

- لم أكن أريد أن أسبّب لك الإزعاج.

- إنك لا تزعجني.

انتظر ابن آدم أن يلحق به جونيور ودعاه إلى مرافقته بضع خطوات. تظاهر

جونيور أنه لا يشعر بأي اضطراب، بينما كان في حقيقة الأمر يمسك نفسه عن الصراخ من شدة الفرح. إن قربه من المارد يغمره بسعادة لا تقبل الشك. كما أن هذه النظافة، وهذا الوجه الضخم والشفاف، وهذه الخطوة الهوائية، وهذه الرائحة لجسد ممتلئ بالصحة، كل ذلك لم يكن جونيور يعرفه قط. إن السكون والصفاء اللذان يصدران عن هذا المارد يجعلانه يشعر أنه يلامس بأصبعه نبض الخلود لمجرد الاقتراب منه.

- أنت تدعى جونيور، أليس كذلك؟

- كيف عرفت؟

- أعرف هذا.

شعر جونيور بالذهول. إنه يتساءل مجدداً إن لم يكن هذا الشخص الذي تفوح منه رائحة المروج في الربيع، هو نفسه الذي جاءه في الرؤيا ليلة وفاة هارون

- كلا، أجابه ابن آدم وهو يقرأ أفكاره. أنا من لحم ودم.

أطلق جونيور في أعماقه صرخة إعجاب. لقد سحره هذا الرجل وفتنه واستمال قلبه، وكان عليه أن يقرص نفسه ليتأكد أنه لا يحلم. كيف لا يشك بهذا الشرف العظيم الذي ناله بوقوفه أمام مثل هذه العظمة؟ كيف لا وابن آدم يشبه الواحة أمام عري وقفر وسخافة باقي العالم، كل شعرة بيضاء في رأسه تروي قصة هم، كل خط في جبهته ينم عن آية، كل سن في فمه ينم عن حكمة. اهتزت مشاعر جونيور حتى اغرورقت عيناه.

بعد عدة خطوات، اعترف قائلاً:

- لقد كنتَ ذا شأن ذلك اليوم فوق الصخرة الكبرى، إني على يقين أنك قطعت الطريق على الباشا وأعوانه، حتى وصلت أفواههم إلى مستوى أقدامهم، واتسعت عيونهم فكانت أكبر من لوحة إعلانات... بينما أنا كنتُ فخوراً. كان دماغي يغلي، وكنت على وشك أن أغفو من شدة الفرح... لست أفهم كل ما تقول، ولكن يا إلهي! كم تُحسِن الكلام.

- شكراً.

- لم أقل ذلك بهدف المجاملة، أقسم لك على هذا.

- لا يساورني أدنى شك في ذلك.

- أنت تحسن الكلام لدرجة أنني لست بحاجة لأن أكون متعلماً. أشعر بالراحة.

- ذلك لأنك شجاع يا جونيور.

- نعم أنا كذلك. يقول "عاش" إنّ لي مكاناً محجوزاً في الجنة. إني لم أؤذِ ذبابة في حياتي، صحيح أنها مزعجة، الذبابة، ولكنني أحترم الطبيعة.

بعد أن أبحر في التأمل، وغدا عاجزاً عن احتجاز السؤال الذي يعذبه منذ يومين وليلتين، تجرأ جونيور وقال:

- قل لي... ألم يحصل أنك مشيت على الماء في بعض المرات؟

- كلا، ولكنني كنت موجوداً عندما تمّ صلب المسيح.

- لا بدّ أن هذا كان بشعاً.

- جداً.

- يا لها من فكرة أن تغرس المسامير في أيدي الناس.

- هذا سخف.

- هل صحيح أنك كنت ملكاً؟

- ولمرات عديدة. أطحت بخال لي كي أسرق منه العرش. وفي حياة أخرى، أجهزت على أبي الحقيقي حتى أتولى الحكم مكانه، ووصل بي الأمر إلى إقامة مملكتي على أنقاض بلد عدو، ونفذت حكم الإعدام بالقيصر الذي انتشلني من اليتم ورباني وكأني ابنه الحقيقي. أن تكون ملكاً يا جونيور يعني أن تمارس الخيانة، وتقترف الأعمال الوحشية. لكن السلطة الأكثر رعباً التي مارستها خلال حياتي هي سلطة القاضي. فلقد أرسلتُ إلى المشنقة مجرمين لم يكونوا في نهاية المطاف ليطيحوا بحياة أناس أو يهدموا كيان عائلات مثلما فعلتُ.

- هذه لم تكن غلطتك.

- إنها غلطتنا كلنا، جونيور. لقد صنعنا تعاستنا بأيدينا، وتقع على عاتقنا مسؤولية معالجة الأمر. يكفي أن نذعن للأمر، ثم أضاف قائلاً: أتعرف؟ لا

يوجد جريمة أسوأ من الانحطاط. عندما أشاهد هؤلاء المشردين يعبثون بالحاويات بحثاً عن قمامة يأكلونها، وعندما أراهم يثملون حتى الموت، هروباً من مواجهة أنفسهم متخلّين عن الفرص التي تُعرض عليهم كل يوم، أكاد أفقد إيماني. فالحياة تستحق أن نحيا آلامها، جونيور. تستحق أن نحياها. رسالتنا كأشخاص مكتوب عليهم الفناء، أن ننهض إذا زلّت قدمنا، وألا نفقد الأمل، بل نعيد بناء أنفسنا من جديد. ولكننا تخلينا عن كل شيء في هذه الأرض الجرداء، وهذا يقتلني.

- يقول "عاش" إن عالمنا هو أفضل من أي عالم آخر.

- هذا ليس عالماً يا جونيور، إنه مأوى للعجزة. لا يوجد فيه شيء: لا صبية يتسلون، ولا نساء، ولا مستقبل. نحن في الجانب الآخر من المرآة، ونصرّ على أن يتولى بعضنا عن بعض.

- يقول "عاش" ألاّ مصلحة لنا في التذلّل للصبية والنساء والمغفلين. فالحرية الحقيقية هي ألا نكون مدينين لأحد، والثروة الحقيقية هي ألا ننتظر شيئاً من أحد.

وافق ابن آدم دون أي اعتراض. ثم التقط محارة وعرضها على جونيور قائلاً:

- أترى هذا الشيء، يا جونيور؟... لقد عاشت لحظات الانتصار، ودوار المرجان، وعصر الصيد، وجني المحصول، والتخصيب، وتفرّد الفصول؛ أما اليوم فهي بقية من أي شيء ندوسه دون أن نلحظ. ولأنها اختارت ألا تدين بشيء للآخرين وألا تنتظر منهم شيئاً، تجمّدت فيها الحياة.

حكّ جونيور أعلى رأسه، فهو غير قادر على ربط هذا الكلام بحديثهما.

ها هما الآن وصلا إلى الطرف الآخر من الشاطئ، وانتهى بهما الأمر إلى منعطف الرصيف الصخري عند سلسلة صخرية على سطح الماء. ماما كانت هنا، عارية من رأسها إلى أخمص قدميها، والماء يصل إلى ركبتيها، كانت تستحم دون أن تستر ثدييها.

- ما الذي تراه يا جونيور؟

تحرز جونيور في الحال، فالأسئلة غير المتوقعة تناديه أكثر من التوبيخ.

أخذ يمعن النظر في الخليج الصغير وقد صمم على اتخاذ الحيطة من الإجابات الغبية: كان ميموزا مستلقياً على كوم من الحجارة، يجفف جسده في الشمس، وقد عقد ذراعيه على شكل صليب، وفتح فاه غير آبه للذباب الذي اتخذه ركناً له، وبالقرب منه، ألقيت العربة على جنبها... يعرف جونيور أن ابن آدم يُخضعه لامتحان، لذلك ليس من مصلحته أن ينعته بالسخيف. فحص المنطقة بدقة، واكتشف وجود مجموعة من جامعي الخرق البالية مختبئين خلف العليق يلعبون وهم يمتعون بصرهم بالنظر إلى ماما.

- لا تبحث من هذه الناحية يا جونيور. عد إلى الصورة الأولى التي ظهرت أمام عينيك.

- حسناً، إني أرى ماما تستحم.

- ومن هي ماما؟

- جارة لي، تسكن في مستودع النفايات.

- الأمر أكبر من ذلك، يا جونيور... ماما هي امرأة.

- الأمر جليّ، أليس كذلك؟

- وهل تدري ماذا تعني كلمة امرأة؟

- حسناً، أعتقد ذلك.

- كلا، إنك لا تعرف شيئاً قط. وإلّا لكنت فعلت مثل ما فعل أولئك البؤساء في الدغل... حاول أن تعرف لماذا يقوم هؤلاء الرنّاؤون بحك... ليس للأمر أي صلة بالجرب ولا بالقمل الذي يتمركز فـي العانة... إنه بسبب ماما. إنهم يتخيلون أشياء. إنهم لا يرون فيها جارة المزبلة، بل يرون فيها المرأة. يسيل لعابهم عند رؤيتهم ثدييها، وإليتيها، وردفيها. وأنت لا ترى شيئاً مما يثير اهتمامهم ويجعلهم يحلمون... وإذا لم تفلح هذه المرأة في إثارتك، فهذا دليل واضح على أنك ميت.

هنالك انفجر جونيور ضاحكاً:

- ربما وقعتُ في الفخ، ولكني لم أفهم ما ترمي إليه.

- اطرح على نفسك السؤال: ما هي المرأة؟ عندما تحصل على الإجابة تكون

أدركت كل شيء.

- ماذا تعني المرأة؟

- عليك أن تجد الردّ بنفسك، جونيور. الأمر منوط بك، وبك وحدك.

- أراهن على أن هذه أيضاً لعبة يُستهدف من خلالها المغفلون.

- أنتَ لست مغفلاً، يا جونيور. أنت أكثر ذكاءً من ذلك. غير أنك تحبّذ أن تبدو بصورة مختلفة لما أنت عليه بالفعل. إنها طريقتك بالتصرّف كطفل مدلل. ومع مرور الأيام، تجد نفسك وقعت في الفخ الذي سعيت لنصبه. وعندئذٍ تصبح الأمور مأساوية.

يا لها من نزهة!... كانت أكثر من رحلة مسارّة، كانت ملحمة بالنسبة لجونيور. فابن آدم يمتلك علماً يتجاوز الإدراك والعقل. أما جونيور فكان يستوعب فقط نصف الكلام، وأحياناً كان يفهم الأمور معكوسة، ومع ذلك لم يكن يولي معاني الكلمات أي أهمية؛ كان هناك شيء آخر خلف المفردات، وهو إيمان قد يعطي معنى لأي تفاهة. ثم إن هناك هذا الاحترام الذي لم يسبق لأي أحد أن أبداه له من قبل. أحس جونيور ولأول مرة أن له بعض الأهمية، وأن ابن آدم يضعه أمام المسؤولية، ويعامله معاملة الند للند. كان ذلك كفيلاً أن يجعله يلهث... لذلك سارع إلى اللحاق ببليس كي لا ينسى أي شيء، ورأسه يغلي بالأفكار، وصدره تغمره البهجة بعد النزهة التي قام بها على الشاطئ، ليقول له الفكرة الإيجابية التي كوّنها عن شخصية ابن آدم... لكن "عاش" لم يكن مخطئاً: إن بليس قادر على إفساد سعادة رهينة عادت للتو إلى أهلها.

- رجلك الأحمق إنسان مكشوف عن بصيرته، قالها بليس بلهجة قاطعة... لا بد لإنسان لديه إيمان راسخ بالقدر، أن يؤمن بأي شيء آخر. قد تقول له إنه يجسّد انبعاث السيد المسيح، ولن يفاجأ. بالطبع لدى سماعه ذلك سيبادر إلى استنكار الموضوع، وسيجيب بالنفي بقدميه ويديه، ولكن ما أن يعود إلى منزله عند المساء، وقبل أن يضع عنه رداءه الذي لا يساوي أكثر من ثلاث ليرات، سيقف أمام مرآته، ويتخيّل نفسه بثوب أبيض، والأشواك تكلّل رأسه.

- ليس لابن آدم أشواك في رأسه.

- هذا لن يطول، بما أن لديه رداءً أبيضَ.

شعر جونيور بالسقم، وكاد أن يختنق.

- إنك مثير للسأم يا بليس تماماً كالموت. إنك لا تهتم سوى بكلبتك. أما أنا فقد أتيت إليك كصديق، وبنوايا طيبة، وبتواضع، بينما أنت تفسد عليّ سروري. إنك تبعث على اليأس، أقولها بصراحة. لو علمتُ أنك محدود التفكير لهذا الحد لتابعتُ طريقي... ابن آدم ظاهرة بحد ذاتها. ربحٌ غير متوقع. هبةٌ من السماء. يذكر أشياء خارقة جداً في الذكاء حتى إنك تجد في داخلك أفكاراً...

- أيها الأحمق! أصرّ بليس غير آبه بتعاسة الساذج. العالم لا يمشي بهذه الطريقة. ولا شيء يعود كسابق عهده. ليس هناك معجزة، ولا خلاص للبشر. ولو وجدت العدالة في مكان ما من هذا العالم، لعلم الناس ذلك. قصص الفرص الجديدة السانحة، ووجهات النظر الرديئة أو أي شيء آخر، كل هذا يصلح لأن يكون حساءً للمحكوم عليه بالأشغال الشاقة. لا يوجد سوى حجـارة فـي كل هذا، ولا حتى قطعة لحـم مغموسة في مرقها. لا يوجد سوى بول قطة جفّ حتى ابيضّ، ووهمٌ بوجود وجبة. لا تصدق أبداً من يدعي أمامك أنه يمكن معاشرة الملائكة أكثر من الجن. ما يدريه؟ من أين له أن يعرفهم؟... ليس هناك إلّا حقيقة واحدة حيثما ذهبت يا جونيور: القدر!.. والطالع كلعب النرد؛ عندما ترميه ينتهي الأمر.

غادر جونيور بليس وهو يرغي ويزبد ويسدد ضربات في الهواء. ويقسم أنه لن يطأ بقدميه مرة أخرى منزل مكدِّر الصفو هذا، الغبي والمحروم، الذي يفضّل جراءه الصغيرة على الناس، إنه عاجز على أن ينفث في بارقة أمل دون أن يخمدها.

- بماذا كنتَ تلهو؟ سأل "عاش" وهو يغلي مستقبِلاً جونيور بكل برودة على عتبة العربة.

- لم أكن أروض السيارات على قارعة الطريق، تذمر الساذج وهو ما يزال غاضباً من موقف بليس.

- تخيل أنّي عائد من هناك للتو، وأعرف أين قضيتَ كل يومك. مَن هذا

الشيطان الذي كنتَ برفقته؟... لا تروِ لي أكاذيب، لقد رأوك معه على الشاطئ. أخبرني ما الذي أغضبك حتى تهوى هذا الأرعن؟ ما أن وصل عندنا حتى قلب عاداتنا رأساً على عقب.

- ليس بالرجل الشرير. إنه يفكر بصالح التعساء.

- أحقاً؟ هو إذن السامريّ؟... أنت غريب الأطوار يا جونيور. كما لو أن حشرة عشّشت في دماغك.

- إنها ليست حشرة. بل كم من الأسئلة.

- ويحك، ويحك ! أسئلة؟... أي نوع من الأسئلة؟

قال جونيور عن كثب:

- لماذا لا يوجد لدينا كهرباء؟

آه، آه، قالها "عاش" بصمت، وهو فـي حيرة من أمره. عقد ذراعيه فوق صدره، وأمال رقبته على كتفه بشكل يرى الفتى الذي يرعاه بالمقلوب. حاول أن يكسب الوقت ليرتب أفكاره فهو لم يكن يتوقع مثل هذا المنحى في مجرى الحديث. ما أن استطاع ذلك حتى لوى شفتيه على جانب واحد وأجاب بخشونة:

- إنك تخذلني يا جونيور، اعتقدت أنك أكثر وعياً. هلاّ قلت لي ماذا تمثل أجمل ثريات الكريستال بعشرات المصابيح المبهرة التي فيها بالمقارنة مع القمر؟ هل هناك نور أنقى، أو أجمل، أو أكثر سخاءً من الذي يبثه القمر، دون قاطع ولا عداد؟

- نسيتَ السُحب.

- هناك أعطال كهرباء في المدينة أيضاً.

وعندما يحصل ذلك تعمّ الفوضى. أما عندنا، فالسماء الملبدة بالغيوم لا تزعجنا... كما أنه لدينا مصباح.

- ربما، ولكننا لا نملك تلفازاً.

- هذا الشيء الذي يجتمع حوله الأغبياء؟ لا تدري حتى ما هو التلفاز. إنه مجرد صندوق سوقي، يصبّ فيه أناس لا علم لهم حتى بوجودك، جهلَهم

وعجرفتَهم في بيتك. إن هذا منافٍ للأدب وللعادات الاجتماعية! لا بد وأن يكون المرء معتوهاً ليقضي وقته في مشاهدة الآخرين ينفجرون دون حشمة ولا تبجيل للتعساء، فـي حين نبقى عاجزين ويسيل لعابنا كالحمير الصغيرة أمام الجزرات الكرتونية... هل حدث أن رأيت أحداً يموت مصعوقاً بالكهرباء عندنا؟ أما هناك، ما أن تترك أصبعك يلامس مأخذاً كهربائياً أو شريطاً حتى تُصعق بسرعة أكبر من البرق. نحن بخير رغم حرماننا من أشياء، أيها الفتى. نحن قريرو العين على طول الخط. ليس عندنا مصابيح نبدّلها، ولا نحتاج إلى عامل رصاص ولا إلـى ناطور. ثم أضاف مشيراً بيده كحركة المزارع إلى كل ما يحيط به: انظر إلى كل هذه الرفاهية التي نتمتع بها بالمجان وبدون تقديم ضمانات،... لا شيء يضاهي شاشة السماء التي ترسم عليها أحلامك بأطراف أهدابك يا جونيور، ولا شيء يساوي نظرة إلى البحر عندما تتراقص الأمواج...

أثنى ذراعه على صدره كما لو أنه يستعيد شيئاً ثميناً.

لم يدَعْ جونيور نفسه تقع في الفخ. بقي صامداً بعناد أمام هذه "الأسئلة".

- انتظرْ، انتظرْ، صرخ "عاش" لمّا شعر أن طريقته لم تُجْدِ نفعاً. لا تتحرك، سأعود.

دخل بسرعة إلى الغرفة وعاد وبيده وعاء ممتلئ بالماء وسكبه على رأس جونيور.

- إيه! صرخ جونيور وهو ينثني تحت الماء البارد. أليست الأمور على ما يرام؟

- ذلك لأغسل لك دماغك... أتركك على سجيتك للحظة وتعود إليّ بتسونامي.

- لماذا تصرخ يا "عاش"؟ لستُ أصمَّ.

- إني أصرخ لأنك تفقدني أعصابي. ليس لديّ إلّا عين واحدة ولا أستطيع أن أراقبك طيلة الوقت. ثم ما الذي تجده جذّاباً لدى هذا المشعوذ الأمهق؟

استاء جونيور لدى سماعه هذه الكلمات، فجمع قبضتيه وأخذ يدافع عن نفسه:

- ليس بالمشعوذ. إنه لا يبيع شراب المحبة، ولا يعد بمعالجة داء النقرس.

لماذا تحكم عليه ولم تعاشره بعد؟... إنه إنسان لطيف. يقرأ الأفكار، ولا نستطيع تجاوزه. لقد أكثر من الأسفار، ولم يعد يخفى عليه شيء. ثم إنه تنبعث منه رائحة زكية، وهو نظيف جداً. لا تستطيع أن تصدق كم هو نظيف. إنه يتعثّر معنا في الشحم الأسود ولا يتّسخ رداؤه أبداً... أليس هذا برهان؟

- كل هذا مجرد مظاهر! قاطعه الموسيقار... سواء كانت الأسمال تغطي أجسادنا، أو كان الحرير يكسونا، فإن معدننا لا يتغير. وهذا الشخص ليس سوى نصّاب. إنه يتملك عقول الناس ويحاول أن يسيطر عليها. لقد روى لي جامعو الخرق البالية ذلك. إنه يعتبرهم مجانين، كما لو كانوا يضعون أصابعهم في أفواههم... احترس من كل ما يبرق يا جونيور، عندما لا يُذهِبْ ببصرك فإنه يلسعك.

رفع له رأسه بإصبعه كـي يثبت له نظره وقال له:

- أتدري ما الذي يجعل الرذيلة تغوي؟... إنه الوهم الذي يغطّيها...

***

الفصل الثالث عشر

لاحظ "عاش" أنه لم يعد له أي تأثير على الفتى الذي يرعاه. لقد حاول أن يؤنبه، وأن يبسّط له الأمور بطريقة (أ+ب)، وأن يردّه إلى صوابه، ولكن جميع محاولاته باءت بالفشل. فمع بزوغ ضوء النهار يذهب جونيور إلى الشاطئ حيث يلتقي بالعملاق الذي يعلو صوته الجهوري صوت المدافع، ويلازمه كأنه ظله. لقد أخذ بمجامع قلبه بشكل كلي. اعتقد "عاش" في بادئ الأمر، أنه من الحكمة أن ينتظر عودة جونيور لكي يستعمل معه الشدّة. غير أن هذه الطريقة بدت له غير مجدية. ثم حاول أن يعالج الأمر بخبرته في علم النفس:

- هل نسيت يا جونيور أني نصفك الآخر؟ ما الذي انتابك؟ هل سئمت مني؟ أم أنك تقصد إزعاج-ي في بعض الأحيان؟ إني أقول لك إن هذا الشخص سيّئ مثل الموت وأنت لا تصغي إليّ. أقول لك إنه الشيطان بعينه، وأنه قدم إلى هنا لكي يعقّد لنا حياتنا، وأنت تركض وراءه حتى قبل أن ينجلي الليل. هل تدرك الألم الذي تسبّبه لي؟ ينتابني الشعور أحياناً أنك لا تحسب لي حساباً قط، بل إنك تحتقرني.

- إني أكنّ لك الكثير من المحبة يا "عاش". غير أن ابن آدم يعجبني أيضاً. لديه الكثير من القصص، وهذا يلائمني تماماً. لقد عرف الحرب، والملوك، والأثرياء... إنه شخصيات متعددة في آن واحد.

- وقصصي أنا، ماذا فعلت بها؟ وأغنياتي؟ ونصائحي الأخوية والعملية؟ لقد كنتَ تشعر بالفرح عندما كنتَ تقلّد أنغام الطبل بفمك بينما كنت أختلق لك أغنيات مدهشة.

- نعم، ولكن كل ما في الأمر أني حفظت أغنياتك عن ظهر قلب. أغنياتك باتت قديمة ولا تتغير. أما ابن آدم فلا يعيد على مسامعك القصة مرتين. ثم هناك شيء آخر، ابن آدم يحكي لك أموراً تعود عليك بالنفع. يقول مثلاً إنه من السهل أن تعيد بناء نفسك. مع أني لا أرى أي علاقة بين بناء أنفسنا وبناء المنازل، ولكن يروق لك أن تسمع هذا. يقول إنَّ الأرض المقفرة لا يمكن استخدامها. لا أران-ي مضطراً لتصديقه، ولكن هذا يقضي على السأم الذي

تشعر به من التكرار. يقول إنَّ على المرء أن يعاود النهوض بعد سقوطه، بالتأكيد كلامه ينم عن الغباء. فأنا مثلاً عندما أسقط أرضاً، أنهض على التو. فالأمر جدّ طبيعي. ولكنه يتكلم بشكل مميّز، يجعلنا نتناسى الأمور السخيفة. ثم أخبرني هل تعرف ما هي المرأة، "عاش"؟ حسناً أما هو فيعرف. وإذا لم يشأ أن يكشف لي عن كنهها فذلك لأن عليّ أن أجد الجواب من دون مساعدة أحد. وعندما أكتشف الجواب أكون فهمت كل شيء.

- ما الذي ستفهمه؟

- وكيف لي أن أعرف إذا كنت أجهل الجواب حتى الساعة.

لم يضف "عاش" أي كلمة. فالأمر الذي كان يخشاه ها هو يحدث الآن أمام ناظريه: جونيور على وشك أن يضيع منه. ها هو بدأ بالعصيان ويفضّل سماع خزعبلات الآخر. إنه قادر بهذه الطريقة أن يعيد النظر بكل الأمور التي علّمه إياها منذ أن تبناه. إنه يتوقع نذير شؤم فـي الأفق. لذا يجب عليه أن يتصرف وبسرعة. لقد نجح هذا "الدجال الأمهق" في إرسال العديد من المشردين إلى المدينة، وجونيور سهل الانقياد. إنه قادر على أن يأخذ على محمل الجد الهذيان الأكثر غرابة، ويهجره ذات صباح دون سابق إنذار. سيبحث عنه "عاش" فوق الجسر العائم، وفي الخليج الصغير، ومن جانب رصيف التحميل القديم، وعلى قارعة الطريق، سيبحث عنه في كل مكان، لكنه لن يعثر على أي أثر له يدلّه عليه... ولمجرد التفكير بأنه لن يراه ليومين على التوالي يشعر أنه على وشك أن يموت.

لقد أمضى الليل بطوله جالساً على عتبة العربة يقلّب في الأمر المريع الذي قد يحدث.

وفي الأيام التالية، اكتفى بمراقبة الفتى الذي يرعاه من بعيد. بدا جونيور وكأنه يطير فـي السحاب فـي ظل أستاذه النفسي. ووجد "عاش" نفسه تعباً أمام عجزه، يتعبه صوت ضحكات جونيور برفقة هذا الشخص الذي جاء يزرع الفتنة والشقاق، ويشعر بالمرض لمجرد أن يستيقظ ذات صباح ويجد سرير "نصفه الثاني" خالياً من الدفء.

ربما يرفض "عاش" الاعتراف بالأمر، لكن هذا لا يغير شيئاً من الواقع، إنه يشعر بالغيرة.

ذات مساء، انهار "عاش". لم يعد بمقدوره أن يحتمل بصمت. بدأ جونيور يخرج عن سيطرته شيئاً فشيئاً، ووجد "عاش" نفسه مكرهاً على التصرف. يجب على "ساحر المغفلين" أن يغادر المكان؛ يجب طرده من الأرض المقفرة بطريقة تجعله لا يفكر أبداً بالعودة إليها. والباشا هو الوحيد القادر على تنفيذ هذه العملية... سيذهب إليه "عاش" ويحكي له الخطر الذي يشكله ابن آدم على جماعته وعلى كيانه. سيقول له إن هذا الساحر الشيطان قادر على حشو مخ بيبو، وعلى أن يأسره بقصص الفداء التي يسردها عليه، ويقنعه بضرورة تغيير حياته وسمائه وأصدقائه؛ وبيبو الذي لم يتوانَ في وقت سابق عن الهروب إثر قرار طائش، قادر على أن يغتر بالمظاهر، ويغادر المكان إلى الأبد، ودون سابق إنذار. والباشا يخشى أن يفقد عشيقه، لذلك سيتدبر أمره لتخليص الأرض المقفرة من هذا الدجال، وبالقوة العسكرية إن لزم الأمر. ضرب "عاش" يداً بيد. لقد توصّل أخيراً إلى الحل الأمثل! بمقدوره أن يحرّض الباشا وجماعته، وجامعي الخرق البالية إذا استدعت الضرورة، ضد هذا الذي يغرر بالأصدقاء، ويسلب السذّج... ويكتشف "عاش" أن عليه خلال أقل من شهر، وللمرة الثالثة، أن يعود إلى الجسر العائم. يشق عليه أن يجد نفسه مضطراً للتفاوض مع هذا السكير الذي لا دين له ولا ضمير، والذي لا يساوي مسماراً، ويتصرّف كملك، ولكن لا مفرّ من ذلك. فعندما يصل الأمر للاختيار بين الكرامة والحب، يجب حسمه، وعلى الفور!

هناك من يقرع باب العربة. إنها ضربات صارمة وجافة. ألقى "عاش" نظرة من النافذة. كان النهار قد بزغ، بينما كان قطيع من السحب يرعى في الأفق وقد أدميت خواصره.

وقف ابن آدم في الباحة منتصب القامة، شاحب اللون، وقال:

- جئت أودّع جونيور.

- إنه في الخارج. لقد أذنتُ له أن يقضي الليل عند الصخرة الكبرى مع جماعة الباشا.

- كنت أتوقع ذلك.

بدا الارتباك على وجه "عاش" وأخذ يفرك أذنه غير قادر على أن يطيل النظر بابن آدم.

- أراحلٌ أنت؟

قلب ابن آدم شفتيه وقد علتهما ابتسامة ازدراء.

- كم هو مؤثر، هذا الموقف. ألم تدرِ بعد؟... ألست أنت الذي حرّض الباشا وأعوانه ضدي؟

- أنا فعلت هذا؟ قالها "عاش" وهو يضرب صدره ببطن يده تعبيراً عن دهشته.

- ومَن غيرك فعلها؟ لقد ذهبت إلى هذا المليك الذي يحكم فناء الدواجن لتحكي له أني أسعى إلى تهجير الناس من الأرض المقفرة في حين أن-ي أح-اول فقط مدّ يد المساعدة إلى هؤلاء البؤساء. جئت لأنقذهم من الانحلال وأعرّفهم بالحياة وبالأيام القادمة المليئة بالبهجة.

- لا دخل لي في ذلك، قال "عاش" مدافعاً عن نفسه. إنك لا تشكل لي تهديداً ولا منافسة. على كل حال، هل جئتُ لزيارتك؟ كنت أتجاهلك كما أتجاهل همومي الصغيرة.

هز ابن آدم رأسه، فهو لم يصدق ك-لامه، أخذ يحدق ملياً ف-ي وجهه، ثم قال له:

- إن-ي لأجدك امرءاً متغطرساً، "عاش" أيها الأعور، بالنسبة لشخص مثلك فرّط بسعادته من أجل لحظة ضعف، هذه وقاحة منك...

خارت عزيمة "عاش" للتو. لقد تمكن هذا المتآمر من كشف الخفايا. كأنه يرى ما وراء الخدع التي بذل جهده ليبقيها طيّ الكتمان. فج-أة، خُيِّل إلى "عاش" أنه أصبح عرياناً.

- على أي حال هذا ليس موضوعنا، قال له ابن آدم مطمئناً. أريد أن أوضّح لك قبل رحيلي أن جونيور ليس تيمة، ولا عوذة للبركة، ولا تعويذة تحميك من نفسك، كما أنه ليس دمية مسرح ولا مقمقة، وليس المرآة التي تعكس لك صورتك عندما تكون شقياً أو فقيراً، أعمى أو عرياناً... جونيور لن يكون كما تحب أن تراه.... جونيور هو جونيور، كما أن "عاش" هو "عاش". غير أنك ترفض أن تتقبل الحقيقة. لأنك تعشق الكذب والغش والرياء.

- هذا ليس من شأنك.

- لا يهم، إن الموضوع جدّ مؤثّر.

- أنت لم تأتِ سوى لنشر بذور الخلاف. لقد وصلت إلى هنا فجأة لا نعرف من أين، جئت تشوّش عقول الناس، وتقطع أواصر الصلة التي تربطهم بعضاً ببعض، وها أنت تنسحب مخلفاً وراءك التعاسة.

- هذا خطأ!... جئت أقول للناس الذين استسلموا للأمر الواقع أن يرفعوا رؤوسهم ويبحثوا من خلال فشلهم، عن فرصة لانطلاقة جديدة.

- لم يسبق لأحد أن طلب منك شيئاً. لقد تخلينا عن فكرة الرحيل من هذه المنطقة. إلى أين تريدنا أن نذهب؟ كل الطرق تؤدي بنا إلى المحن ذاتها. أتعتقد أننا لم نحاول؟ لقد توقفنا عن اللعب حين اكتشفنا أن أحجار الزهر مزوّرة. ونحن الآن نشعر بالارتياح.. لقد رضخنا للأمر الواقع.

- تكلّم عن نفسك، يا "عاش". هناك باستمرار طريق آخر لإدراك القطار الذي فاتنا.

- تركنا هذا الطريق لك بدون منافسة. مع السلامة!

هز ابن آدم رأسه، وقطب وجهه بطريقة غريبة وابتعد. وما أن وصل إلى الحاجز الصخري حتى وضع "عاش" يديه على فمه وصرخ قائلاً:

- أنت لست سوى حثالة المجتمع الذهبي يا ابن آدم، أنت لست أكثر من بائع كلام.

توقف ابن آدم فجأة فوق الصخور. وقد ولاه ظهره للحظة وكان حانياً الرأس، وكأن أحدهم انهال عليه برصاص من الجانبين، ثم استدار ناحية "عاش" وعاد أدراجه.

كان "عاش" بانتظاره برباطة جأش مستعداً لقتاله، وقد قلص فكيه وجمع قبضتيه. لكن ابن آدم لم يرجع ليقاتل. لم يكن وجهه يعكس أي غضب أو نزعة عدوانية.

- ربما كنتُ حثالة المجتمع يا "عاش"، ولكنني لا أسحب أحداً وكأنّه قذيفة كروية.

- ذلك لكي تسعى إلى حتفك بشكل أسرع، قالها "عاش" بلهجة الاستهزاء.

- احفظ جيداً ما سأقوله لك أيها الأعور، وحاول أن تفكر فيه ملياً قدر المستطاع: جونيور لن يكون الحيوان الذي سيلازمك أبد الدهر.

تراجع "عاش" بصدره إلى الوراء وهو غاضب، وأرعد قائلاً:

- جونيور أخ-ي الصغير، وأنا أحافظ عليه.

- يا لك من أحمق! إنه ليس أخاك الصغير. إنه رجل وله الحق في أن يعيش حياته بالطريقة التي يختارها. ما الذي قدمته له في هذا المكان الضائع فيما عدا بؤسك ورعونتك؟

- إنه سعيد معنا ولن يقدر على العيش بعيداً عن هنا.

- وما أدراك؟

- إنه غبي مسكين.

- ليس بالغبي. بل أنت الذي تمنعه من أن يكبر.

ارتجف "عاش" من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، كأنه تحت تأثير صدمة كهربائية.

- أنا؟ قالها وهو يلهث مضطرباً.

أدرك ابن آدم أنه أصاب نقطة الضعف عند "عاش". فاغتنم الفرصة لينهي الفكرة التي بدأها.

- تماماً، أنت... مَن الذي أذن لك أن تدعه ف-ي تلك الح-الة المزرية؟ لا شيء... لا شيء يسمح لك أن تستولي على هذا الفتى الذي سلبته من قَدَره لتجره معك من خ-لال انحطاطك مثل الكلب الأعمى.

- لا أسمح لك أن ....

- كفى! أنا لست جندياً عندك، ولا تملك أن تأذن لي أو تمنعني. اعلمُ تماماً من أي الشوائب تنحدر. لست سوى معالج وقح، ومهرج دود الطُّعم. هل تتوقع بنسبة واحد من مليون الأذى الذي تلحقه بهذا الفتى المسكين؟

- إني أحبه.

- يخامرن-ي الشك أنك لا تشعر سوى بالخجل تجاه نفسك. فالحب يا "عاش" هو مشاركة..... إذا كنت أشعرُ بالحزن على جونيور، فإني لا أملك

تجاهك سوى الشعور بالشفقة.

وعلى هذا، غادر الزريبة تاركاً وراءه الموسيقار مذهولاً في وسط الباحة.

***

تساءل "عاش" إذا كان ابن آدم لم يؤذه بسحره.

إذ إنه عندما يخلو إلى نفسه أو عندما يلجأ إلى أغنياته لا يفارقه صوت الأستاذ للحظة. يظل يدور ويجول في داخله كالعاصفة الهوجاء، ويبقيه صاحياً لساعات طويلة. "جونيور ليس بالأبله، أنت من يمنعه من أن يكبر...". ويتباعد تقريع بن آدم للحظات كالصدى الذي يبتعد بسرعة - أنت من يمنعه من أن يكبر... يكبر... يك...- ليعود ويرتد إليه بسرعة فيسبب له الكدر كالشتائم... أصمّ "عاش" أذنيه، وأخذ يغني بصوت مرتفع علّ صوته يطغى على الصوت اللحوح؛ ولكنه لا يسمع سوى ذاك الصوت.. جونيور ليس دمية المسرح الخاصة بك.. جونيور ليس الحيوان الذي يلازمك. شعر "عاش" أنه سيفقد عقله.

ترى ما عساها أن تكون طبيعة الذيفان الذي حقنته اتهامات ابن آدم في عقله، والتي بفرقعة بسيطة من الأصابع تلغي قناعاته الأكثر صلابة الواحدة تلو الأخرى؟... نظر "عاش" إلى يديه ولم يعِ سبب اضطرابهما. أخذ يسدد لكماته إلى كل ما وجده في متناول يده، ولكن يديه لم تكونا لتطالا أي شيء، فتعجّب لهذا العجز الذي أصابه. ترى ما الذي بُتر في داخله؟ ولماذا لم تعد الأرض المقفرة فجأة مصدر إلهامه؟ وكيف حصل بين عشية وضحاها أن فقدت تلك الهوامش التي كان يفخر بها في أناشيده في الزهد، والتي تمتد من رصيف التحميل حتى الجسر العائم، ومن مخزن النفايات إلى الشاطئ، فقدت عظمتها دون سابق إنذار، ولم تعد تمثل في عينيه سوى مبانٍ قلقة، وصروح خربة سُلِّمت إلى خندق التنازلات.

شعر "عاش" أن زمام بعض الأمور بدأ يفلت منه منذ ذلك الصباح الذي جاء فيه الدجال الأمهق يودعه. لم يعد قادراً على تحديد أي شيء. هل هو حزن جونيور الذي لم يحتمل اختفاء الناصح الذي جاءه بالصدفة؟ صحيح أنه بكى في اليوم الأول، وقاطعه في اليومين الثاني والثالث، ولكنه ما لبث أن سيطر على نفسه وعاد إلى حياته الطبيعية. فهو يبقى في فراشه حتى

الصباح، ويتسكع على الشاطئ طيلة النهار، ليعود في المساء مرهقاً لكنه سعيد. وينضمّ أحياناً إلى جماعة الباشا، ويتظاهر "عاش" أنه لم يلاحظ شيئاً...

كلا، هناك شيء غريب طغى على قريحته كموسيقار... وكأنه شقاء داخلي، أو تنازل مبهم شبيه بذلك الذي أثقل كاهله وكاد أن يرديه أرضاً ذلك المساء الذي أحيا فيه سكان المدينة عيدهم الوطني. مع ذلك، كانت السماء تفيض بالألعاب النارية، والليل يغير حلّته في كل دقيقة، بينما لم تصل أي شرارة إلى السواد الذي أغرق أفكار "عاش" في ظلام دامس. رغم أن السماء كانت متلألئة لكنه لم يكن يلمح فيها سوى تعنيف ابن آدم المحرق الذي كان ينتشر بحروف كبيرة، متوعداً، ومفجراً النيازك فجعلها تثور وكأنها انفجار بركاني.

وفجـأة، يأتيه الوحـي: ذلك الذيفان الذي أخذ يأكل فـي مخه كالسوس، الذي جعله يمضي الليل بقلق، والنهار بذعر؛ لقد تمكن أخيراً من تحديد هذا السؤال الواخز، الذي لم يتمكن من معرفته، والذي بات يؤرقه بشدة ويسبب له الألم؛ إنه ذلك الشيء الذي يصغّر من شأننا ويعظّمنا في آن واحد، تلك الخطيئة الجليلة التي من خلالها نصل إلى الفداء: إنه الشعور بالذنب.

وفي الدقيقة التي صحا فيها ضمير "عاش"، انطفأ كل شيء من حوله.

***

الفصل الرابع عشر

أسدل الليل ستره من جديد. وأرخـى الضباب رداءه الأبيض على الشاطئ بينما نَعبَ النسيم اللطيف وسط القصب، فبدا المكان كأنه مأهول بالأشباح. رغم نور القمر المضيء، كان هناك شيء حزين يفسد هدوء مستودع النفايات. وفـي السماء الباهتة ترسم النجوم خطوطاً من فوق بحر تتلاطم أمواجه في كآبة قاتلة. وتبدو المنارة من بعيد كأنها عملاق أسطوري، يشرف، بعين واحدة، على المنحدر الصخري بانتظار ظهور أوليس الذي توهته العاصفة.

بدا جـونيور حـائراً. لقد تغير "عاش". إنه لا يتوقف عن الشكوى، وعندما يغني، وهذا لا يحدث إلا قليلاً، فإن غناءه ينم عن حقد دفين للعالم بأسره... والأمر الذي ينذر بالقلق، لم يتفوه الموسيقار ببنت شفة منذ ساعة الغروب. كانت عينه السليمة تبدو مطفأة مثل زميلتها، بينما تشبه لحيته شجرة الصفصاف المتدلية الأغصان. وفي كل مرة يحاول رفع رأسه، تلتوي نقرته بسرعة مما يجعل ظهره يرتعد.

- غداً سأُخرج بنفسي الخيمة الصفراء، وعده جونيور بحماس ضعيف. سأضعُها قبالة البحر وسأصفي الرمل من حولها. وهكذا عندما نتمدد، لن نضطر لأن نرعى أنفسنا أو أن نتحرك.

جاء صمت "عاش" ليخيّب أمل جونيور ولكن دون أن يدفعه إلى اليأس، مما شجعه لأن يتغلّب على القلق المتزايد الذي كان يتغلغل في داخله ليقول:

- لا يترتب عليك فعل أي شيء. سأهتم بكل شيء. ستكون الشمس ملء أعيننا، وسنرسل بصرنا إلى ما بعد الأفق. لن نسمع صوت الحيوانات ولا الناس، لأننا سنكون بمفردنا أنت وأنا على الأرض.

- ...

- لا يترتب عليك أن تروي لي شيئاً، أكّد جونيور. أَعلم أنك لم تعد تميل إلى الثرثرة في الآونة الأخيرة. لن أطلب منك قصصاً ولا دروساً عن الحياة. وعلى أي حال، لقد شرحتَ لي كل شيء.

- ... أحياناً عندما أسترسل في الحديث فإني أسمع كلامك. إنك أفضل الإخوة، "عاش"، وأفضل الرجال. إذا كنت ترغب باللوذ بالصمت فهذا من حقك. صمتك يعني أنك تفكر، وأنا أحترم صمتك لأني أدرك أهمية ذلك بالنسبة لك.

- ...

- ستتمدّد إلى جانبي على الرمل وسنضع أيدينا تحت رأسنا وسنقهر البحر حتى نمزج بين ذروة الموجة وكلب البحر وهو يتلوى، وكما تقول... يا للمسكين! لديك من هذه الرؤى! كيف تتدبر الأمر لتضفي جمالاً على أشياء لا يلحظها الآخرون؟ بالنسبة لي، لن ألحظ التقارب بين المطر المدرار والعنبر...

- اصمت جر.

أصيب جونيور بالصدمة. إنها المرة الأولى التي يناديه فيها "عاش" بهذا الاسم "جر".

- "ج-ي - يير"... إنه الأفضل،... ومنذ متى، قل لي...

دعك "عاش" خرقة كان ممسكاً بها، كأنه يتمنى أن يكون ثعباناً فيخنقه. كان ذراعه يهتز بقوة مريبة، وشفتاه ترتجفان كأنهما تناضلان حتى لا تخرج من بينهما الشتائم التي يجترها والتي لو خرجت دفعة واحدة لابتلعت الأرض المقفرة بأكملها.

انكمشت رقبة جونيور ببؤس، وكأن الضيق الذي يشعر به وليّه يقصيه عن الشاطئ وعن باقي العالم.

- ربما اللباقة التي يمتلكها بليس لا تتجاوز تلك الموجودة عند الخنزير البري، ولكن معه لا يبدو أننا نتكلّم مع جدار.

- اصمت جونيور، بحق السماء، رجاه الموسيقار.

انتصب جونيور غاضباً، وهدّد قائلاً:

- إني ذاهب لأشوه وجهي على جناح سيارة.

وقف "عاش" بدوره مغتاظاً:

- لا داعي لأن تُتعب نفسك، سأقوم بذلك عنك.

وعند هذه الكلمات توارى في الظلام وكأنه سفينة تغرق، تاركاً صاحبه واقفاً مثل العمود في الساحة.

بقي جونيور طوال الليل، جالساً على برميل ينتظر عودة الموسيقار وهو يقضم أظافره، وكلما مضى به الوقت زادته الهواجس ثقلاً وهمّاً. تخيّل نفسه يتيماً، وحيداً في هذا العالم، لا أحد يسمعه فوق هذه الأرض المقفرة التي تدير له ظهرها. شعر بالعجز أمام هذه المدينة الغولة التي تتحداه عن بعد.

لم يسبق لـ"عاش" قط أن تركه وحيداً في الليل.

ها هو "عاش" يعود أدراجه من الشاطئ عند الفجر. بدا خارجاً عن طوره لدرجة أن جونيور أمسك نفسه عن الإسراع للقائه. بكل تأكيد، يشعر جونيور بالارتياح، ولكن حزن الموسيقار كان كفيلاً بإفساد احتفال إمبراطوري بأكمله. اكتفى بالبقاء في مكانه مسمّراً على البرميل، يراقب بطرف عينه الأعور الذي اختار الجلوس على حجر كبير بين الشاطئ والمنزل، غير قادر على اتخاذ قرار، هل يعود، أم يبتعد من جديد؟

يعرف جونيور أنه يجب عدم إقحام الأشياء. على أي حال إنه لا يدري أي موقف يتخذ. ولا يدري "عاش" من جهته، مدى ضياع مَن هو في رعايته. ومن جهة أخرى، يبدو أنه لا يشعر بشيء مَن حوله. إنه يشكل جسماً واحداً مع الحجر الذي ارتمى فوقه... بعد مدة طويلة من بقائه جامداً من دون أية حركة، وضع آلته الموسيقية جانباً، ورفع عينه الحزينة نحو السماء. لقد توقفت الأرض المقفرة عن دغدغة شاعريته. لم تعد تسلّيه أمواج البحر، ولا رائحة النباتات، ولا الهدوء، ولا طقطقة الحديد المكسر. تعلو وجهه علامات الاستياء، وهو الشاعر الحساس، المجروح الذي كانت تستوقفه أدق التفاصيل، ها هو الآن يشكّ حتى بإخلاص الكلاب. إنه الآن يخجل من أسماله. لم يعد يؤثر فيه ألم "الحُر" مهما كان. لقد أغلق قلبه العجوز كما يغلق قبضة يده.

وتمرّ الساعات. وتضرب الشمس بشدة. ويضطرم الرمل. لم يهتم "عاش" بكل هذا، يكاد سعير النار يلامسه، بل إنه لا يكلف نفسه عناء مسح العرق الذي يتصبّب على جبينه.

لم يعد جونيور يستطيع الانتظار. ينهض بتثاقل عن البرميل اللاذع، يدور

حول الموسيقار، ثم يرتمي إلى جانبه دون أن يُظهر أي تعبير، يحفر ثقوباً بيد شاردة، يتمدّد، يغرس رسغيه في الرمل، يحرك بحركة ذات معنى أصابع قدميه من خلال خفيه الممزقين. ولما رأى أنه لا يحرك شجون من يرعاه، جلس على قفاه، وثنى ركبتيه تحت ذقنه، وترك نظره يغرق في البحر...

ولما مالت الشمس للمغيب، أطلق تنهيدة.

- أيضاً هذا الانتقال الغبي إلى الفراغ؟

استغرق "عاش" وقتاً طويلاً قبل أن يمسح أنفه بمعصمه. وكأنه يبكي في أعماقه. ثم اعترف قائلاً:

- أنا حزين.

- هذا واضح تماماً. كم سيستغرق ذلك؟ لقد طفح الكيل معي.

وانكمش "عاش" خلف همومه. نهض جونيور وتظاهر بالابتعاد.

- إن-ي ذاهب للقاء بليس... لا أرغب ف-ي البقاء مع شخص لا يُكنّ أي اعتبار لمشاعر الآخرين.

لم يأتِ "عاش" بأية حركة ليثنيه عن عزمه. إنه يعرف حق المعرفة أن مَن هو في كنفه لن يبتعد أكثر من الصخرة التي تبعد عشرين متراً. وبالفعل، توقف جونيور عندها، ودون أن ينظر إلى الوراء بدأ ينبش الرمل بمقدمة حذائه.

- جونيور! لا تقم بمثل هذه الحركات.

رفع جونيور منكبيه.

- عد إلى هنا أيها العنيد.

- لست عنيداً، زمجر جونيور فقط لكي يصون كرامته.

ثم عاد أدراجه.

ها هو الموسيقار يتجاهله. أسند رأسه على آلته الموسيقية، وترك لنفسه العنان مع الأنغام التي يدندنها. بعيداً من جهة المنارة، يمكن أن نميز أبنية المدينة. يتناهى إلى سمعنا أحياناً صخب سكة الحديد.

- أتذكر تلك الأمسية، يوم احتفال المدينة؟

عقد جونيور حاجبيه، متوقعاً أن يقع بالفخ. قال "عاش" محاولاً طمأنته:

- إنها ليست لعبة أغبياء.

استرخ-ى جونيور قليلاً وجعّد عينيه في محاولة للتذكر.

- ليلة النجوم المذنّبة؟

- كانت مذهلة، أليس كذلك؟

- نعم، لم تكن سيئة.

رفع "عاش" رأسه، ومسح على لحيته. ثم نظر طويلاً إلى مَن هو في كنفه، فوجده هزيلاً مثل بذور الأزهار ومثيراً للشفقة إلى حد كبير. فأسرّ له:

- حسناً، كان ذلك مضحكاً جداً بالنسبة لي... كما لو استفقت من غيبوبة عميقة. فج-أة عاد لذاكرتي كل شيء.

- ما الذي عاد لذاكرتك يا "عاش"؟ نبرة صوتك لا تعجبني.

تنفس "عاش" بعمق وقال:

- الماضي، يا جونيور، إنه الماضي. لقد تهافت إلى ذاكرت-ي المكان الذي نشأت فيه قديماً، والجيران، والمح-لات، وشرطي الحيّ، والشبان الذين كانوا يتفاخرون بسياراتهم الصاخبة بمسجلاتها، وتذكرت أيام الأعياد، وأيام الجنائز. تذكرت أدق التفاصيل حتى كاد رأسي أن ينفجر... ثم تراءى لي أفراد عائلتي، واحداً تلو الآخر.

قال جونيور صعقاً:

- توقف "عاش"، سيغمى عليّ.

- هذه هي الحقيقة.

- كم حقيقة يوجد؟ كنتَ تدّعي أنه ليس لك سواي على وجه البسيطة...

- كنت أريد أن أنسى.

- كنت تقول أنك ولد من الشارع...

- لقد تبناني الشارع بعمر متقدم جداً يا جونيور. كنت قد فقدت معظم أسناني، واشتعل رأسي شيباً.

رمقه جونيور بعينيه وهو على يقين هذه المرة أن الأعور سيأخذه في جولة بحرية.

- أشعر بغموض في حديثك. لا تجبرني على شيء فأنا لا أريد الوقوع في الفخ. لن يكون الأمر طبيعياً.

نظر "عاش" إليه بحنان كبير وقال:

- هل تعرف أني كنت متزوجاً؟

- ليس أنت يا "عاش"، صرخ جونيور وهو يعود القهقرى، واضعاً يده على قلبه.

- أؤكّد لك أن هذا صحيح.

- قل هذا الهراء لغيري. هذه القصص ليست لك. أنت أكبر من ذلك.

- لماذا تريدني أن أكون أكبر من هذا؟

- أنت "عاش" ولم تعطَ ذلك. أنت لست أي شخص. لقد جبتَ العالم وتجولتَ فيه من طرف لآخر، وهذا كافٍ ليمنعك من الارتباط بالزواج. كنتَ تجد أنه من أتفه الأشياء أن تتخذ زوجة لك، وأن هذا من الهذيان، وأن حياة الزوجين مملّة، وبيتهما كمأوى المقهورين، وأنهما لا شيء...

- ومع ذلك، هذه هي الحقيقة. لقد كنت أيضاً والداً لطفلة صغيرة رائعة. كان لي منزل في حي هادئ، وعربة، وحديقة تطل على الشارع. وفي المساء بينما كنت أراقب الجيران من الشرفة، كانت زوجتي تعد لي كأساً أحتسيه، وكنا نبقى جنباً إلى جنب حتى تضطرنا برودة المساء إلى الدخول.

أشار إليه جونيور بأصبعه.

- لقد آذت الشمس مخك يا "عاش".

كان "عاش" مأخوذاً بذكرياته. يتابع روايته ووجهه مشعٌ كأنه طفل صغير أمام حوض سمك.

- لم نكن نحيا حياة القصور، ولكننا كنا قريبين منها. كانت السعادة تغمرنا. إلى يومنا هذا، ما تزال سبابتي تشعر بعضات ابنتي وهي تجرب أسنانها اللبنية...

- توقف، توقف، صرخ جونيور كالمجنون، إنك حتماً تهذي. لا يمكن إلا أن يكون بيتك محبباً لك. هذا ليس من طبعك. لم تكن بحاجة لا لمنزل ولا امرأة ولا ولد. كان العالم عند قدميك. لقد أثملتني بهذه القصص منذ سنوات. لم تولد لتتورط مع أهل يعيشون عالة عليك، أو أطفال يتربون على حسابك. أنت تساوي أكثر من ذلك. ولدت حراً لترى بلداناً وتطارد الشمس. إني أحفظ أسطورتك عن ظهر قلب يا "عاش".

أمسكه من معصميه وأطبق عليهما بقوة.

- لم تعد مؤخراً على ما يرام. لستُ أعمى البصر. وهذا جليّ لكل ذي عينين. أشعر بك. نحن قريبان من بعضنا مثل الأخوين زوج. ولكن عندما تُغير رأيك، يا "عاش"، وتُبالغ في الكذب وتدّعي أن لك زوجة وأولاداً لا يساوون شيئاً، أنا لا أوافق...

- جونيور، جونيور...

- كلا، لا أريد سماع أكاذيبك. أكتفي بهذا القدر. (ونهض.) أنا الذي سأذهب إلى الشاطئ هذه المرة. سأعود عندما تستعيد هدوءك.

- يمكنك الذهاب حيث تشاء. هذا لن يغير شيئاً. لقد كنتُ حقاً شخصاً آخر. ولأنني لم أكن أستحق سعادتي انتهى بي الأمر إلى هنا... كثيراً ما تغيب عنا هذه الأمور. في كل صباح يبتسم لنا الحظ، وفي كل مساء تتلقفنا السعادة ولا نشعر بذلك. نعتاد على هذه الرتابة. ويهيأ لنا أن الأمور ستجري على هذا النمط كل يوم، لا نعير اهتمامنا لما نملك، وفجأة بفرقعة الأصابع، نلاحظ أننا فقدنا كل شيء. لأننا نعتقد أننا اقتلعنا القمر، ونريد التهام الشمس أيضاً، وعندها فقط تحترق أجنحتنا.

أحنى "عاش" رأسه وكأن شقاء العالم بأكمله قد انصبّ فوقه. ارتعدت يداه واحتبست أنفاسه، وكاد أن يختنق.

- كانت ابنة عم زوجتي تأتي لقضاء إجازتها معنا بانتظام. إنها جميلة، وعيناها تسببان لي الاضطراب. أقسم لك أنني قاومت، ولكنها كانت تراودني كل مرة، كانت على يقين أنها ستنال مني... وقد فاجأتنا زوجتي في غرفة النوم لدى عودتها من احتفال مدرسي... تمنيتُ لو خُسف بي ذلك اليوم. كنت

سأدفع عمري حتى يعود بي الزمن إلى الوراء وأقاوم وأقاوم. ولكننا لا نستطيع إرجاع الزمن إلى الوراء يا جونيور... لم تلعنّا زوجتي. خرجَتْ مع الصغيرة دون أن تنبس ببنت شفة. لم أنجـح في العثور على أثر لهما أبداً. كنت مجنوناً من الغيظ والحزن. كان ذلك تصرفاً غبياً. لحظة ضعف وحياة بأكملها تسقط في الماء بشكل مثير للبكاء. عكست لي المرآة الموجودة في الغرفة صورة الحقير الذي تحولت إليه. كرهت صورتي. هجمت على المرآة ورأسي يسبقني، وهكذا اقتلعت شظية زجاجٍ عيني... حتى لا أنسى أبداً كيف أني هدمت سعادتي بكلتا يديّ...

كان جونيور على وشك أن يتقيأ. أحس أن شعوراً بالغثيان قد قلب أحشاءه.

- لا أصدقك يا "عاش".

- وما الذي سيتغير؟

فجـأة شعر جونيور بالاحتقار إزاء صاحبه. وبإصبع يرتجف من الاستنكار أشار إلى الأبنية التي تبدو من بعيد كأنها تماثيل لا قيمة لها.

- أنت قادم من "هناك "...

- كلنا قادمون من "هناك " يا جونيور...

ضرب جونيور الرمال بقدميه، وابتعد وهو يلوح بيديه ثم يعود، ثم يبتعد باتجاه الشاطئ، ويدور حول نفسه مثل الدبور، يلعن عن اليمين، ويبصق عن اليسار، وبعد أن غسل غضبه وأخرج من جعبته ما ينهش داخله، عاد وهو يمسح جبينه بذراعه وقد ابيضّت عيناه من الاشمئزاز.

- لستَ سوى مُتَبَجِّح يا "عاش". يمكنك أن تبهرني بكلامك الفارغ قدر ما تشاء، لن أُخدع.

وانفجر " عاش" قائلاً:

- أنا الموسيقار. أنا الذي صنعت منكم أحـراراً، أيْ رجـالاً حقيقيين يعيشون على هامش المجتمع واللقاحات والإحصاء السكاني، لا يتلقون بريداً، ولا يسمعون كلاماً عن الضرائب أو الإتاوات أو أشياء أخرى قذرة... رجالاً يعيشون على طريقة الإنسان البدائي.

- إني أوافقك. لماذا إذن تغير رأيك؟

رفع "عاش" رأسه. لم يعد وجهه سوى قناع مترهل. وبعد صمت طويل قال:

- أريد أن أدعك تجرب حظك.

هزت نبرته الرزينة والمؤثرة جونيور الذي اعترف بلهجة باردة:

- أعرف أنك تفكر بمصلحتي.

- إذن افتح أذنيك، هناك أشياء كثيرة تجهلها. لقد عشتُ بين سكان المدينة وجئتُ لأعيش بين الأحرار والمضطربين عقلياً والعجزة. أنا في موقف يجعلني أحكم أيَّ العالمَين أفضل.

- عالم الأحرار هو الأفضل.

- خطأ!

ابتلع جونيور لعابه غير مصدق ما يسمع.

- كنتَ تبغض سكان المدينة. كنت تقول إنهم مشوهون بلا قلب ولا ضمير.

- كنت أكذب.

- كنت تقول إن "الحُر" إنسان نقي وبلا قيود مثل العشب الصحراوي، وإن حياتنا مستقيمة وملساء مثل سمكة الثعبان، بينما رجال المدينة يصادفون مشاكل كثيرة في حياتهم، تسرع في رحيلهم منها، ما أن تدري بقدومهم إليها حتى يكونوا قد غادروها. كنت تقول إننا لسنا بحاجة للشرطة ولا للنقابات، ولا للانتخابات كي نعيش، وإنه يكفينا أن نستيقظ في الصباح حتى نجد أنفسنا في خضم الحياة....

- كذبتُ عليكم...

قفز جونيور إلى الخلف، وهو يشعر بالغثيان والإهانة في آن واحد.

- كنت أريد أن أقنع نفسي أن باستطاعتي أن أشطب حياتي الماضية بخطين متصالبين، قال الموسيقار. ينحدر الأحرار والناس العاديون من قالب واحد، ومن عجينة واحدة، منهم الأشرار، تجدهم في بعض الأمكنة، ومنهم الظرفاء وهم موزعون في كل مكان تقريباً.

أخذ جونيور يفكر، وقد انكمش جبينه حول تجعيدة قبيحة. فانقلاب

الموسيقار الفجائي لم يدله على شيء ذي قيمة، بل بدا له أنه يشبع الهواء بنذير شؤم، ويقرع كصلاة الأموات. لاحظ فيه إرادة مجحفة لوصية غامضة، وإشارة تنذر بحزن كبير، وإعلان مكشوف لمأتم مرتقب. فجأة تحوّل قلقه إلى فزع، يلقي بشباكه على قلبه قبل أن يمتد ويتشعّب ببرود ليطال كل كيانه...

أحس جونيور بضيق عندما سمع نفسه يتمتم:

- لماذا يظهر عليك التخاذل اليوم، يا "عاش"؟ هل تشعر أن الموت بات قريباً منك.

شدّ "عاش" على يديه حتى كاد أن يسحقهما.

- فلتعلم أننا نواجه الموت في كل لحظة يا جونيور، إنما هي الحياة التي يجب أن تشغلنا. حاول أن تدرك ما أنا بصدد شرحه لك الآن، بل حاولْ أن تنسى ما قلته لك سابقاً. صحيح أن الأمر يدعو إلى القلق، ولكنه ليس سبباً لأن تعاند وترفض ما سأقترحه عليك. إنها ليست عملية مقايضة. إنه الواقع ولا مجال للمتاجرة مع الواقع. هل تعتقد أني قادر على إيذائك؟

- مستحيل. ما من شيء تفعله إلاّ تبتغي به مصلحتي.

- إذن أولني ثقتك...لقد بلغْتَ عامك الثلاثين. والحياة لا تزال أمامك طويلة، ولديكَ متسع من الوقت لرؤية خَلَفِكَ...

- نعم، ولكن كيف؟

- اذهب إلى المدينة...

خُيِّل لجونيور أنه تلقى ضربة من عصا على وجهه الأحمر وقال:

- كنتَ دوماً تقول إن الساذج لا يتمتع بفرص ليتعرف على أصدقاء في المدينة.

- كنتُ أقول ذلك لأحتفظ بك إلى جانبي.

- وهل مللتَ صحبتي الآن؟

- ليس هذا بالضبط. أريدك أن تجرّب حظك. فأنت لا زلت شاباً، وهذا يعطيك الفرصة لكي تتدارك شبابك، وتبدأ من جديد.

- أي بداية؟

فما كان من "عاش" إلا أن جذبه إليه بعنف، ليدفعه بعيداً عنه، ويحدق في عينيه. وأصبح صوته دافئاً وأخاذاً كما في أغنياته.

- لا يمكنك أن تدري ما قيمة أن يكون لك منزل حقيقي يا جونيور، منزل خاص بك، حيث يحلو العيش، حتى لو لم تكن أيامك كلها يوم أحد. هذا يشعرك بشيء خـاص، ربما لا قيمة لك وسط الناس... لكنك لا تشعر برجولتك إلا عندما تدخل إلى بيتك. لديك شأنك، لديك رؤيتك، زوجتك تصغي إليك، أولادك يحبونك كما لو كنت إلههم الخاص. سيكون قلبك دافئاً على الدوام عندما تجد نفسك في كنف أسرتك مهما اقشعرّ بدنك من البرد. أما في نهاية الأسبوع يا جونيور فستقدم لنفسك راحة المحارب. تأخذ بأيدي أولادك وتقودهم إلى الساحة المجاورة لتراهم يلعبون. مهما حاولوا إيهامك أن لا قيمة لك وأنك فاشل، أو خرقة أو أي شيء آخر، لا يهمك العالم بأسره لأنك تملك أسرة.

- هل أنت جاد؟

- لم أكن يوماً أكثر جدية من الآن.

- هل تريدني حقاً أن أذهب إلى هناك؟

- نعم.

جلس جونيور فوق كثيب، ووضع رسغيه على ركبتيه وأمسك رأسه بين يديه؛ وأخذ يفكر ويفكر... وبعد أن استرجـع كل التساؤلات التي تمزقه، نظر إلى الموسيقار كأنه لا يستطيع أن يفهمه. ثم سأله بحركة من أصابعه العشرة:

- ما هو كنه المرأة في الحقيقة يا "عاش"؟

مضت لحظة تأمل، وكأن "عاش" قد حوصر بسؤال جونيور غير المتوقع. وفـي أقل من ثانية تحولت سحنته إلى مرآة واسعة، يستعرض فيها ذكريات كثيرة وبعيدة. قال بصوت متهدج ومرتجف:

- إنه ذلك الشيء الذي نادراً ما يحصل مرتين في حياة الرجل. إذا لم تلتقطها في الوقت المناسب أثناء تحليقها لتحتفظ بها كجوهرة ثمينة، فقد تعض أصابعك حتى الرسغين من الندم ولكن سيكون الأوان قد فات.

اغتاظ جونيور من إجابة الموسيقار، وهو يصرخ:

- هذا لا يجديني فتيلاً. أنا أطرح عليك سؤالاً واضحاً ومحدداً وأنت تُخرج

لي أشياء غامضة ممزوجة بالفلسفة. لا أطلب منك أن ترسم لي لوحة. قل لي مَن هي المرأة أيها الرذيل؟ فالأمر ليس معقداً إلى هذا الحد.

يبحث "عاش" في أعماقه عن نَفَس طويل بقدر كافٍ ليعلن:

- كل شيء.

- ماذا يعني ذلك؟

- بالضبط ما تعنيه الكلمة... المرأة حب. والحب هو أجمل قدر يمكن أن يصيب كائناً حياً. قبل الحب لا يوجد شيء يذكر. وبعد الحب لا يبقى شيء. الحب هو جوهر الحياة ومعناها وخلاصها. إذا أتى نحوك، احتفظ به ولا تتخلى عنه أبداً. وإذا هرب منك، اركض خلفه. وإذا كنت لا تدري أين تجده، اخترعه. فالحياة بدونه ليست إلا خرابًا، وهوةً، وسقوطاً عشوائياً لا نهاية له.

عند ذلك أوشك جونيور أن يفقد عقله. وأخذت تتزاحم في خلده مقاطع من أحاديث سرّية، تحاصره، لتذوب في ذاكرته. ها هو يتعرّف على أصوات ابن آدم، ديب، إيتسيتيرا، المشردين والغائبين عن الأنظار منذ سنوات طويلة، ثم يتناهى إلى سمعه صوت أناس كلموه في ساعة رضى عن المدينة بلغة مختلفة عن لغة "عاش"؛ لغة ملونة، متوازنة، شبه مبتهجة ولكنه لم يُعرها وقتها أي اهتمام. فجأة انبثقت من بين ذكرياته قصص صاخبة، من الضجيج والغضب، مضحكة أحياناً، كئيبة أحياناً أخرى، ولكنها راقية في الوقت نفسه، قصص تخالطها قضايا الحب الذي استغني عنه، وأخرى مأهولة بالأقارب الذين تُبرىء منهم، مواهب تعرضت للفساد، وقصص حب بريء قد كبحتْ، وأحلام طردتْ، وندم ووخز ضمير، فيض من الدموع والتنهيدات تدفقت إلى عقله الصغير. ارتدت ألف كلمة في صدغيه، وتضاربت عبر هذيان متصدع، تأتي وتغدو ثم تحترق قبل أن تنطفئ، خالية من أي معنىً ومن أي صدىً. يحاول جونيور أن يتعلّق ببعض منها، ويتخلى عن بعضها الآخر، لقد اختلطت الأفكار في رأسه بشكل خطير. فأخذ رأسه بكلتا يديه ليحتوي الفوضى التي عششتْ فيه، وتسمَّر تفكيره حول فكرة واحدة فقط، يحاول جاهداً أن يجردها عن باقي الأفكار.

ولما بدأت الأمور تتجلى أمامه بوضوح أكبر، أعلن:

- هذا هراء! تذّكر الشيء وعكسه، وفي كل مرة أجدك على حق. ومع ذلك، إن لم أستطع أن أجد إطاراً للغتك الجديدة فستجدني مفتوناً، لا تسألني بأي شيء ولا بمن؛ لا أملك الجواب. إذا كان مستقبلي مطابقاً لما ترويه لي، فحينئذٍ سأذهب لأجرب حظي. بدأت أجد الوقت طويلاً هنا. تنتظر الغد، والغد سيأتيك ويراودك الشعور بأنك لا تزال في الأمس وفـي الأيام التي سبقت. إنك حتى لا تشعر أن عمرك ينقضي... شيء ما يهمس لي أنها ربما ليست بالفكرة السيئة، أي أن تقلب ظهر المِجَنّ لترى ما تحتها....

ثم بعد أن حلّل الأمور، سأل:

- هل ستحقد عليّ لو اعترفتُ لك بخديعة؟

- لنفضح جلّ الأمور.

احتقن وجه جونيور من شدة الارتباك، ولكنه تمكن من المضي في اعترافاته:

- عندما كنت تظن أني كنت على الجسر العائم، فذلك لم يكن صحيحاً. كنت أذهب في بعض المرات من الناحية الأخرى من الشاطئ لأرى ماما تستحم عارية. كنت أشعر بأشياء غريبة تطرأ على جسدي.... كانت السعادة تغمرني دون أن أفهم السبب...

- أرأيت؟

وافق جونيور بإيماءة من رأسه ليعطي لنفسه بعض الشجاعة. وفكّر بصوت مرتفع:

- حسناً لِمَ لا تكون فكرة صائبة؟! ربما تختلف الأمور لو كان لديك زوجة، ومنزل له نوافذ وباب يغلق بالمفتاح، وحديقة تراقب من خلالها السيارات التي تعبر الشارع... (كان النور يضيء وجهه كلما استمر بتعداد هذه الأشياء المريحة التي تبدو ضرورية، والتي لم يكن يعيرها أي اهتمام فيما مضى). ستختلف الأيام دون أدنى شك. هذا حتمي... يقول إيتسيتيرا إنه لو بقيت له ذراعه لكان يقود شاحنة في محاولة لتعويض الوقت الضائع... أن يكون لك زوجة وأولاد وغرفة وجيران عندهم أسرة وسيارات مركونة إلى جانب الرصيف وعشب يمتد على طول الممرات، وأيام أعياد وأيام دفن، ومندوبو

مبيعات يأتون لغاية بيتك يحضرون لك الحلوى... هل تدرك ذلك يا "عاش"؟ الحلوى!. آخر قطعة حلوى بالزبيب التقطتها عن مقعد تعود لسنوات عديدة حتى إنني غير قادر على تذكر طعمها...

- من لا يجرّب لا يحصّل شيئاً، أعلن "عاش" بشيء من الفلسفة.

- نعم! صرخ جونيور وهو يغلق قبضتيه. ماذا سأفقد لو بدلت في النهاية؟... سيكون هذا جيداً... سيكون لديّ امرأة، وغرفة وأبناء...

- سأقوم باللمسات الأخيرة!

انتفض الصديقان. كان بليس واقفاً خلفهما، تعلو فمه تكشيرة في وجه خالٍ من أي تعبير.

- ابتعد عن هنا، هدده "عاش"، أنا وجونيور نتناقش بأمور هامة.

- سمعت ذلك. أنت لا تكف عن حشو رأس هذا المسكين الأحمق بأشياء تافهة.

صرخ جونيور:

- أنا لست أحمق، صحيح أنا غير متعلّم ولكن لديّ عقل.

- بالمناسبة يبحث أينشتاين عن شخص لتجاربه. على الأقل سيكون لك نفع معه.

استشاط "عاش" غضباً عندما لاحظ أن بليس يقتني حزاماً جديداً، وهو الذي كان يكتفي عادة بوضع خيط ليثبّت سرواله.

- أليس هذا هو اللجام الذي أهديته لك؟

- لا تغيّر دفة الحديث أيها الأعور. ماذا تحكي له؟ لماذا تريد إرساله إلى هناك؟ إذا كان يسبّب لك الإزعاج أو إذا مللت منه فأعطني إياه.

- جونيور ليس جروراً.

واعترض جونيور دون أن يدرك لعبة الحوار:

- أنا لست جروراً.

فغضب بليس وزمجر:

- يا لك من أبله مسكين! هذا القفل القديم الصدئ يحاول إرسالك إلى الإعدام من دون محاكمة.

صرخ "عاش": ابتعد!

وكرر جونيور الكلمات نفسها.

فصاح بليس وقد فقد السيطرة على أعصابه:

- كلا لن أدعك ترسله إلى المسلخ...

- ولكن مَن يكلمك عن المسلخ؟ سأل جونيور بازدراء.

فاستطرد بليس مغاضباً:

- المدينة مصيدة الجرذان، وقد علا اللعاب شفتيه. إنهم هناك لا يستلطفون المشردين. ثم إن جونيور ليس بكامل وعيه. أين سينتهي به المطاف برأسه المختلّ؟ كيف سيأكل؟ إنه يكاد يدبر أموره بمفرده. كلا لست موافقاً. أنت هنا يا "عاش" تتجاوز حدودك.

قطّب جونيور حاجبيه وقد ساءته معارضة بليس الوحشية. فما لبث "عاش" أن أمسك بيديه وأداره نحوه.

- بليس يغار من قوتك. لقد تقدم به العمر، وأوشك أن يموت. لقد استنفد قواه، وأضاع مستقبله تماماً كما فقد فطنته. هيا تأمله جيداً، وسترى أنه مجرد جثة متنقلة، ينأى أي حفار قبور عن التكفل بها. بينما أنت تفرقع في النار. أنت في مقتبل العمر ولديك كل أسنانك لتعض في الحياة وكأنك تنهش في فخذ الفروج. لديك كل الحق في ارتكاب الأخطاء لأن إمكانيات التعديل أمامك متوفرة. الوقت في مصلحتك. عندما يكون لدينا حليف مثلك في معسكرنا، فإننا نتفانى في تحقيق مستقبله. كذبتُ عليك مراراً، ولكني كنت دائم التفكير بمصلحتك. واليوم أكثر من ذي قبل. اليوم سنحت لك الفرصة فلا تدعها تفلت من يدك... لو لم أكن مقتنعاً إلى أبعد حد، لما أرسلتك إلى أي مكان... اذهب واثقاً... اذهب واعثر على امرأة ممشوقة لتنجب لك أولاداً.

أرجع بليس رأسه إلى الخلف وأرسل ضحكة شنيعة.

- أجل. ما أسهل ذلك المطلوب! فما عليه إلا أن ينحني حتى يلتقطها، هذه المرأة الممشوقة.

- هذا ليس من شأنك، قال "عاش".

وقال جونيور:

- هذا ليس من شأنك، لا يستطيع الغيورون أن يغيّروا شيئاً في الأمر، سيكون لديّ أولاد وكل شيء. وفي نهاية الأسبوع سأتمتع بإجازة المحارب.

جذب بليس جونيور من ذراعه، وجره إلى الصخرة ليبعده عن تأثير الموسيقار. حاول "عاش" أن يتدخل إلا أن كسله أبقاه متسمراً في مكانه.

أمسك بليس جونيور من كتفيه، ووضعه أمامه بحيث يتقابل نظرهما:

- ليس لديك أي فرصة. سيجعلون منك شخصاً آخر عند أول منعطف كالآخرين، ذهبوا ولم يعودوا من هناك أبداً. هل تذكر الأعرج؟ كان فذّاً. كان يراهن على رؤوسنا دون أن يدفع فلساً واحداً. وفي النهاية لم يعد. والأب عويد، ملك النصابين، الذي كان يغتني من جرّاء إفلاس الآخرين، هل من أحد يعرف مكانه الآن؟ لم يكن هناك من هو أفضل منه في الحساب. لم يكن يطأ بقدمه أي مكان إلا بعد أن يمشّط الجوار تمشيطاً كاملاً. كان بمقدوره اجتياز حقل ألغام وهو معصوب العينين. حسناً! لقد نالوا منه كأنه حديث العهد. والبومة الصمعاء؟ كان قاسياً. وقد أدى خدمة العلم، وأمضى سنوات في السجن والأشغال الشاقة. وأتيح له التعرف على كل شيء، والتغلب على كل المصاعب. حتى الباشا كان يحترمه. لقد تبخر بنفخة!.. أين ذهبوا كلهم؟ أيمكنك أن تقول لي ماذا حل بهم؟...

- لقد رحل الأعرج بسبب ديب، أوضح له جونيور.

- هذا كذب، بل ذهب يتزوّد من حاويات الأثرياء، وكان ينوي العودة إلى القاعدة. ليس من طبعه أن يتخلى عن الأصدقاء.

- بلى! لقد ضاق صدره من ديب. ورحل دون رجعة. كان يقول إنه يفضل العيش وسط مجموعة من الضباع على أن يعيش قرب وغد.

- كان باباي شخصاً لطيفاً. ألطف حذّاء على وجه الأرض. ذهب إلى المدينة ليحضر غراء ومسامير لأحذيتنا. لا شيء غير هذا. يا للعجب! لم يكن يطلب القمر. من حينها أصبحت أحذيتنا القديمة تبتل بالماء، وأصبحنا مضطرين لإصلاحها بقطَع من الربطات... كلا جونيور، المدينة ليست لنا. ربما ننحدر

من عائلات كبيرة، ولكننا نحافظ على كبريائنا... "عاش" شاعر، والشاعر يهذي أحياناً دون أن يشعر بذلك.

توسّل جونيور قائلاً كما لو أن السعادة كلها منوطة بموافقة بليس:

- أرغب بمنزل حقيقي.

- لا يوجد شيء لك هنالك. مكانك هنا، حيث لديك أصدقاء. أما المدينة فهي عبارة عن طرد مفخّخ، إنها بلد عدوّ.

- يقول "عاش" عندما يكون لك عائلة، فلا قيمة لأي شيء آخر.

- إذن لماذا لا يعود إلى هناك أولاً ليرقب الوضع؟ لماذا يبقى هنا بينما يرسلك إلى تلك الغابة الإسمنتية؟ أنت الذي يتساوى عقلك مع عقل سمك الشبوط الجائع.

حك جونيور وراء أذنه بقوة. فالملاحظات الوجيهة التي أدلى بها بليس ترجعه إلى الموسيقار.

- هل هذا صحيح يا "عاش"؟ لماذا لا تعود إلى هناك؟

- لقد تقدّم بي العمر.

كان هذا كافياً لطرد الشك لدى جونيور الذي استطرد قائلاً وقد استولى على كيانه الحماس مجدداً:

- أمتأكد أنت أن حياتي ستتغيّر؟

- حتماً.

لم يضطره جونيور لأن يكرر كلامه مرة ثانية، مما زاد في خيبة أمل بليس.

مع ذلك، رفض بليس الاستسلام والتنازل عن إلحاحه. فانحنى على الموسيقار ونهره:

- تقدّم بك العمر؟... حجة داحضة! إنك حتى لم تكلف نفسك البحث عن مخرج لائق. كأنك نهضت فـي الصباح ناسياً جزءاً من جمجمتك على الوسادة. حديثك فارغ، وعباراتك الضحلة أكثر تفاهة من قصصك التي ترويها بماء الزهر.

- اصمت! أيها الطائر النحس.

- يا للجنون! كم أنك تراجعت إلى الوراء يا "عاش". كنت أعتقد أن لك كرامة تعتزّ بها، وإلهاماً تبقى عليه، ومنزلاً يدخل الدفء إلى القلب، وزوجة لذيذة تكتفي بالكلمة الحلوة، وأطفالاً تأخذهم من أيديهم في عطلة نهاية الأسبوع... يا لها من سعادة في متناول أي أسرة. كما لو كان الأمر يقتصر على استخدام...

أشاح "عاش" بوجهه عنه وطرده بحركة متعالية بيده.

فما كان من بليس إلا أن واجه يا "عاش" وانهال عليه موبّخاً:

- من أين أتيت بكل هذا؟ "عندما يكون لك أسرة لا تبالي بالعالم كله"، هراء! "المرأة هي كل شيء؟" أتعتقد؟ "الحب خدعة". ربما لستَ مخطئاً بذلك. كيف نخترع الحب؟ قل لي. ومن أي وصفة؟... ثم ماذا بعد؟... أنت تتكلم عن وحي!.. حتى الطفل الصغير الذي يضع أصبعيه في منخريه، لن يأخذك على محمل الجد.

استدار "عاش" مجدداً على مؤخرته وهو لا يزال جالساً، فانقضّ بليس على جونيور.

- إنه يذلّل لك الصعاب، يا صغيري. فالأمور لا تجري على هذا النحو. هذا البخيل المرتبك يروي لك الأكاذيب. إنه كثير الثرثرة.

لقد ابتعد جونيور الآن، وها هو متعلق في أفقه الجديد المزركش بتزيينات مغرية ووعود كاذبة. رفع يديه بمحاذاة أذنيه ليوح-ي إلى بليس أنه لا يريد سماعه، واستدار على نفسه ليتجنب الذراعين اللذين يحاولان إقناعه. وما أن اتخذ قراره حتى شعر أنه مستعد لمقاومة أي هجوم، وللتغلب على العين الحاسدة والحسّاد، ولكسر الحبال التي قد تمنعه من الزحف بسرعة نحو سماء فيها يزرع الناس الياسمين، وتختلف الأيام، ويسمح باقتراف الخطأ، ويطيب العيش لدرجة يتمنى المرء فيها الخلود.

***

الفصل الخامس عشر

لقد رحل جونيور. أحس "عاش" بوخز الضمير.

فبالأمس ساعد الفتى الذي يرعاه في وضع بعض الملابس التي لم تكن ذات عيوب كثيرة داخل حقيبة، وشرح له كيف يكتشف أعمال السلب التي تنجز غدراً بدءاً من الشريط الحدودي، ومن ثَمَّ وضعه في سريره في ساعة مبكرة على غير المعتاد كـي لا يرجـع عن رأيه، إذ كانت معاناته لا تُطاق. ما لبث جونيور أن غفا على فراش القش. يُخيّل لمن يراه أنه مَلَكٌ أُدخل في حزمة من حشيش، بابتسامته العريضة، ويديه اللتين تشبهان يدي الطفل. اضطرب "عاش" إلى درجة كاد صدره أن يتصدّع، فطبع على جبينه قبلة خاطفة قبل أن يختفي في غسق الليل، وهو أعجز عن أن يتقبّل فكرة الاستغناء عن الإنسان الذي يهمه أمره أكثر من أي شخص آخر فـي العالم، وذلك تحت اسم القدسية الأخلاقية. أدركه الصباح وهو جالس على أكمة، قبالة البحر، وقد شرب حتى الثمالة، وبكى حتى جف دمعه. وعندما بزغت شمس النهار، تراءى له الشاطئ أكثر كآبة من جزيرةٍ موحشة، وبدا له أن البحر الهادئ قد انتُزعتْ روحه.

كان يتمنّى في أعماقه، أن يجد جونيور لدى عودته، منكمشاً على نفسه ممدّداً على فراشه، في استرخاء... غير أن جونيور لم يكن هنا. لقد رحل جونيور بالفعل، ونسي بسبب طيشه أن يحمل حقيبته معه.

انتظره "عاش" كل النهار، وانتظره فـي الأيام التالية؛ لكن جونيور لم يرجع.

يا إلهي! كم هو مشتاق إليه. كل زاوية في الأرض المقفرة تَشعر بالضجر لغيابه، كل صوت يردد صدى ضحكته البلهاء، كل خيال يظهر من بعيد يذكره بمشيته المترنحة. جونيور في كل مكان، وغائب عن كل مكان في آن واحد. عندما غاب ضوء النهار خلف الصخور، خيل إليه أن رائحة الفتى الذي كان يرعاه انتشرت فـي كل مكان حتى وصلت أنفاس البحر.

- جووووووونيوور! أطلق "عاش" صرخته العالية وسط صخب الأمواج.

هنالك ازدادت جلبة الأمواج تعبيراً عن حقدها عليه.

انهار "عاش" فوق الرمال، وأخذ رأسه بكلتا يديه وهو يسبّ ذلك اليوم الذي اقتحم فيه ذلك الشيطان ابن آدم أرض "الأحرار" وأخذ يعكر صفو أفئدتهم وعقولهم.

بقي منهاراً منذ الصباح حتى حلول الظلام، رافضاً بشكل قطعي أن يتخيّل الفتى الذي يرعاه بعيداً عنه كل هذا البعد.

لقد أدرك الآن أن رحيل جونيور لم يكن بالفكرة الصائبة. إذ إن فرص خروج المرء سالماً من وكر الأفاعي تفوق فرص خروجه سالماً من مدينة تعج بالأغنياء الذين لا يملكون قلبًا ولا شعورًا بالأخوّة، حيث لا يتبادل جيران المحلّة التحية، ولا يقدم أحدهم يد العون لمَن كان في ضيق... عالم مُشرَب بالمظاهر الخدّاعة، تزدحم شوارعه العريضة بأناس غرباء فيما بينهم، إذ يبدو كل واحد منهم منغلقاً على نفسه مثل صندوق الحديد الذي ضاعت منه كلمة المرور. "عاش" يعرف القليل عن المدينة. كان يعتقد أنه محاطٌ بالأصدقاء المستعدين للتضحية بأنفسهم لأجله. وفي الوقت الذي كان في حاجة ملحّة إلى الترويح عنه لم يلقَ أحداً منهم. منذ ذلك الحين لم يستعد هدوء باله. لذلك لم يكن مجيئه إلى الأرض المقفرة محض صدفة، بل كان بسبب فقدانه الثقة بالجنس البشري... فالمدينة ليست بالمكان الأمثل لإعادة بناء النفس بعد سقوطها. توصّل إلى تلك النتيجة من تجربته الشخصية، فلا مكان للمغفلين في المدينة. وجونيور لن يصمد فيها طويلاً، إنه بشر من لحم ودم، ويحمل قلبه بين يديه، بينما بنيت المدينة من الإسمنت المسلح ومن غطرسة سكانها الذين يعتبرون التضامن ضرباً من الألعاب البهلوانية، والإحسان نوعاً من سوء التوظيف، والرحمة عملاً أخرق. لا يهتم الناس هناك إلا بمصلحتهم الفردية. أزيز النبيذ لا يثير شفقتهم، والفقير الجائع الذي يطلب اللقمة ثم يتابع طريقه لا يَلفت نظرهم، يحتفظون بعواطفهم دفينة إذا لم يعد عليهم إظهارها بأي نفع.

بقي "عاش" فترة طويلة قبل أن يذعن للأمر. لم يتوقف عن تكرار أن جونيور بريء، وأن الأبرياء قريبون من الرب، وأن هناك نجمة في السماء تسهر على رعايتهم؛ وأن هذا الأمر كان لا بد أن يحدث في يوم من الأيام، وأن الوضع الآن أفضل من ذي قبل، وألا شيء يُثبت أن جونيور ليس سعيداً

هذه الساعة. كان "عاش" يكثر من الحركة ليبعد عنه الأفكار الشريرة. كان يذهب في الصباح إلى الشاطئ لمشاهدة الأمواج تتلاحق تحت أشعة الشمس، وبعد الظهر يراقب من بعيد جماعة الباشا الذي يحمّله مسؤولية مصير الساذج؛ ويعود في المساء إلى عربته، ويرهق نفسه بتناول ماء الحياة الفاسد ليقضي على حزنه.

كان بليس يأتي بين الفينة والفينة ليتحقق من عودة جونيور. وعندما يجيبه الموسيقار بحركة برأسه تفيد النفي، يعنّفه بليس حتى يكاد يقتلع حنجرته. ويتهمه بأنه اقترف جريمة بفعلته. فيرد عليه "عاش" بقوله إن من واجب كل فرد أن يجرب حظه. فيذكره بليس بأنه لا يمكن اعتبار الساذج رجلاً، لأنه مرهف الأحاسيس وضعيف كالجرو الذي يُترك في الطبيعة، وعندما يكون عقلنا محدوداً فإننا لا ننتبه أيضاً إلى الخطر الذي يحيق بنا. يرفض "عاش" الاعتراف أنه بالغ في الأمر، ويكرّر بتعنّت أن للرجل الحق في محاولة تغيير القدر، سواء كان سليم العقل أو متخلّفاً.

مضت الشهور، تلتها سنوات طويلة

انقطع بليس عن المجيء للسؤال عن جونيور، وتوقف "عاش" عن خداع نفسه بالأوهام. بات كل المشردين يُظهرون استياءهم لدى رؤيته، سواء الأحرار منهم أو أولئك الموجودون على الجسر العائم، بمن فيهم عابرو السبيل الذين يتوقفون في مستودع القمامة- مَن كان بهم مس ولا يُعرف لهم أب أو أم، ما أن يطّلعوا على الموضوع نتيجة عدم تحفّظ البعض، حتى يرموه بنظرات الازدراء.

لقد نفد صبر "عاش".

لم يعد يعرف كيف يتوارى عن الأنظار.

لقد تحول كل من مستودع القمامة والجسر العائم والشاطئ إلى مناطق معادية.

ما أن يلحظ خيالاً قادماً باتجاهه من بعيد حتى يعود أدراجه، أو يركض ليختبئ خلف تلال الخردة لتلافي التلميحات المثيرة كأنها السحر.

انتهى به الأمر إلى الانطواء على نفسه بعدما أتعبته الحرب، لكنه لم ينعم

بالسلام المنشود. وكأنه في مواجهة مع ضميره، مكبّل اليدين والقدمين. عبثاً حاول التزام بيته القديم الذي لا صدى فيه لأي صوت، ولكنه عجز عن تحمّل غياب الفتى الذي كان في كنفه. كانت تأتـي عليه أيام يجلس فيها القرفصاء أمام فراش جونيور، ويلامسه بأطراف أصابعه، ويحيي ذكرياتٍ قديمةً جداً حتى يقع فريسة الشقيقة. إنه يذكر الوضعية التي كان يحب جونيور أن يأخذها قبل أن يخلد إلى النوم عندما يدخل رأسه في الممسحة التي كان يتوسدها، ويرفع مؤخرته كأنها تاج العمود؛ يذكر صوت غطيطه الذي كان يبالغ فيه عندما كان يتظاهر بالنوم، والابتسامات العريضة التي كان يرسمها لكي ينال العفو عن الحماقات التي اقترفها، وضحكاته البلهاء التي كان يلجأ إليها عندما يُباغتُ بالجرم المشهود. كلما استعاد ذكريات مزعجة، رفع غطاء صديقه في مستوى وجهه، وأفرغ ما في أنفه. كان يأخذ رأسه في يديه ويجهش في البكاء، فيطغى نواحه على صوت الأمواج، فيتساءل الليل عن النوايا الحقيقية للمصابين بالأرق... لقد راوده الشعور بالذنب آلاف المرات أن يمشي على سطح البحر حتى يدرك أبواب السماء، ولكن برودة المياه كانت تثنيه عن عزمه على ذلك.

شعر "عاش" أن صحته بدأت تتدهور بسرعة.

لقد استحوذ عليه تبكيت الضمير كاملاً، وأصبح رهينة لتعنيف الكل؛ إنه الألم الذي يصيب أعصاب الجلد.....

وذات مساء...

وذات مساء عند سكون طيور النورس، ظهر جونيور وسط الأرض المقفرة. هكذا. بضربة عصا سحرية.

اضطرب "عاش" من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.

اعتقد في البداية أنه أمام شبح، ولكن عندما رسم جونيور على وجهه ابتسامته المثيرة للسخرية، التي لا يستطيع أحد أن يقلدها، سقط أرضاً، ورفع ذراعيه إلى السماء، وشكر الله للخلاص الذي مُنِحه.

- أهذا أنت حقاً يا جونيور؟

- أتَرى؟ أجابه الساذج. لقد وجدت طريقي دون مساعدة أحد، تماماً كما

يفعل الكبار.

وارتمى أحدهما في حضن الآخر كأنهما نهران ينحدران من جبل واحد، فرّقت بينهما الجبال والوديان وعادا ليصبّا عند مسقط المياه، فانصهر كلاهما في إعصار رائع من الدموع والأغنيات.

وفـي الحـال، ظهر كلٌ من الباشا، ونيغوس، وميموزا، وماما، وبليس، وكل من كان على الجسر العائم، وكل من كان على المنحدرات، وجامعو الخرق البالية، حتى الحيوانات والكائنات الصغيرة جداً، كل أولئك عادوا من الأطراف الأربعة من الأرض المقفرة. جاؤوا ليشهدوا بأنفسهم المعجزة، جاؤوا ليتحققوا بأنفسهم أنه يمكن للمرء أن يكون أحمقَ وأغبى من حذائه، ويعود سالماً غانماً من أعماق المدينة. شعروا بالارتياب وراودهم الشك في آن واحد، لذلك أرادوا الوقوف على حقيقة الأمر. حيث ذهب الكثير من المتهورين إلى هناك، وكانوا متمرسين في فنون الحرب، وعندهم من المكر ما يفوق ذلك الموجود لدى القردة، رحلوا إلى المدينة يملأ رؤوسهم كم هائل من الحلول وطعنات مخاتلة لا حدود لها، لدرجة أنهم لا يجدون مكاناً لخزنها، ذهبوا "إلى هناك" ولم يعودوا أبداً. انقطعت أخبارهم، واندثرت ذكراهم حتى ليتساءل المرء إن كان لهم وجود في يوم من الأيام في هذا العالم.

كان الباشا هو أول مَن اقترب من جونيور، وأخذ يتفرّس فيه عن كثب ليتكد أنه هو بعينه، بينما انتشر باقي الحضور حول الفتى الذي "عاد من المدينة بأعجوبة"، وقد حبسوا أنفاسهم، يترقبون أي تغيير قد يطرأ على ملامح وجه رئيسهم. كان هذا العائد من المدينة يرتدي سترة فضفاضة مغضنة، يكاد يختفي فيها ولا تزال تفوح منها رائحة القمامة التي تصدر عادة عن العربة القلابة، أما القبعة فكانت عالقة بزر واحد، وبفارق في طول الكم الأيمن عن الأيسر. كان يرتدي سرداً واسعاً لم تعد تُعرف ألوانه، أما السروال فكان بالياً، ومن شدة طوله سقط بشكل لولبي فوق حذاء بدون رباط. وقد وشمه أحدهم حول رقبته الجرداء بثعبان أخضر اللون مائل إلى الزرقة، له عينان واسعتان حمراوان بلون الدم ، يُخيّل للناظر إليه انه يكاد يخنقه.

- أهذا أنت يا جر؟...

- حسناً، ألا يُرى ذلك؟

- وكيف رجعت؟...

- سيراً على الأقدام،...

أومأ الباشا برأسه ليشير للآخرين أن هذا هو جونيور بعينه. وبلمحة، انهالت الأسئلة على جونيور من قِبَل أصحابه القدامى.

- جر، أيها المبجّل!

- إنك بطل دون أدنى شك. فمن عاد من المدينة بعد هذه الفترة الطويلة التي أمضاها فيها لا بد أن يكون بطلاً. فالأمر لم يحصل من قبل.

- هل أصبحت ثرياً؟

- "الحر" لا يحتاج إلى النقود، قال جونيور وهو يشمخ برأسه، بل يأخذ ما يقدّمه له القدر.

- هذا صحيح، أكد "عاش" على ذلك، بصوت ما لبث أن غطّته أصوات استنكار الآخرين وصيحاتهم.

- لا أستطيع أن أصدق أنك عدت إلينا...

- دعني ألمسك، يا جر، فربما تكون شبحاً من خيال ودخان.

- لماذا عدت إلى هنا، يا جر؟

- حسناً! قل لي يا جر، كيف تبدو المدينة؟

أجاب جونيور وقد أرضى غروره كل هذا الاهتمام:

- ليس اسمي اسم كلب. لا تختصروه. أدعى جونيور، لا يزيد عليه حرف ولا ينقصه.

علّق "عاش" وهو يشعر بالفخر، مستشهداً بالآخرين:

- لقد تغير هذا الفتى، دون أن ينقص منه شيء.

قال بليس وقد بَرَد حماسه بعض الشيء:

- لا تجعلنا نضرب الأرض بأقدامنا أيها الساذج، هيا أسمعنا ملاحمك البطولية.

بقي جونيور هنيهة مرتبكاً كأنه لم يدرك معنى كلمات بليس، ثم عاد إلى

الواقع. ملأ وجنتيه بالهواء، بذل جهداً، نظر إلى حضوره المؤقتين الواحد تلو الآخر، لا يدري من أين يبدأ.

- كيف تبدو المدينة جونيور؟

- من فضلك جونيور، قُصَّ علينا كيف...

- لن تقتنعنا أن قصة سفرك خطرت على بالك فجـأة...

- هيا جونيور، لا تتكلّف.

فجـأة وكالنهر الجارف، قال:

- كل شيء كان رائعاً، أيها الفتيان، كل شيء مدهش. لقد غصت الطرقات بالمارّة مما اضطرهم أن يدوسوا على أقدام بعضهم بعضاً...

- أحقاً؟ اغتبط بليس مشككاً في الأمر.

- الأبنية شاهقة جداً لدرجة تجعلك تصاب بدوار الغنم.

- أهذا كل ما لفت نظرك؟ قالها بليس باستهزاء متزايد.

- "مكان مكتظ" أيها الفتيان، تابع جونيور وقد برقت عيناه. إنك بالكاد تستطيع أن تحتفظ بنفحة هواء خاصة بك. تجد نفسك غالباً مضطراً لأن تضخ الهواء تحت أنف جارك...

- نعم، ولكنك حتى الساعة، لم تصف لنا كيف تبدو المدينة.

عقد جونيور حاجبيه، وبدا أنه فقد سلسلة أفكاره ليستعيدها بعد هنيهة.

- إن المدينة لا تشبه أي شيء. لا يمكنني أن أقارنها بأي شيء. المدينة هي "ماذا أقول لكم..." كدت أنحرف عن الطريق، ولكنني كنت أعود دوماً. أضواء فـي كل مكان، كتابات تسطع على الجدران، سيارات كالدلافين، سيارات ركاب كبيرة شبيهة بالأكورديون، وقطارات، أما الضجة فإنها تصدّع الرأس، والمصابيح مصفوفة على شكل البصل في كل الشوارع، أما واجهات المحلات، فإنك تصطدم بها من شدة لمعانها، والساحات أكبر من أرضنا الواسعة، والطعام على مد البصر، والفتيات في كل مكان، تتطاير شعورهنّ في الهواء، قد تُصاب بضربة شمس لحسنهن... وختم قائلاً وهو يثني رقبته، ولكني يا "عاش"، نظرت في الحدائق، ونظرت في المرفأ، ونظرت في كل زوايا

المدينة، ولم أجد أي أثر للمرأة التي كنتَ تحدثني عنها.

تبادل الآخرون النظرات ولم تُشبَع رغبتهم.

- أهذا كل شيء يا جونيور؟

- حسناً...

- لقد بقيتَ فترة طويلة في المدينة. من المستحيل ألاّ تكون تعرّضتَ لمواقف مزعجة.

- لم أبقَ طويلاً في المدينة. ربما يومين، ربما ثلاثة. ذات ليلة وجدَتْني عربةٌ تشبه تماماً منزل "عاش"، وجدتني نائماً تحت الجسر. فانهال علي رجل الشرطة بعصاه، استيقظت على إثرها في مكان كئيب لا يشبه المدينة، ولا يشبه الأرض المقفرة. ربما كان جهنم. كان هناك رجال مخيفون يراقبون حركاتنا، يملأ وجوههم اللعاب، وتخرج من أفواههم كلمات بذيئة ...

صمت مريب سيطر على الشاطئ حتى بقبقة الأمواج لم تعد تسمع. وفي الليل الذي بدأ يسدل ستاره، اجتاح الظلام المكان، وزرع الرعب حتى امتد إلى الباشا، فانعكس ذلك في نظراته.

- هل كنت في السجن يا جونيور؟ كاد السؤال أن يختنق في حنجرة بليس.

- ... كانوا يكدّسوننا في الصباح الباكر من كل يوم قبل أن ينجلي سواد الليل، في شاحنات ليرسلونا إلى مناطق بشعة تقشعّر لها الأبدان. ثم كانوا يعطوننا الهراوات، ويجبروننا على تكسير الحجارة. وعندما نسمع صوت الصفارة، كان علينا أن نقوّس ظهورنا، ونستمر في ضرب الصخور حتى يغمى علينا. كانوا يضربوننا بأحذيتهم على مؤخراتنا عند كل ضربة فاشلة. وإذا حاولت أن تراوغ كان الحارس يباغتك بسرعة، وينهال عليك ضرباً بالهراوة على مؤخرتك حتى يقتلع جلدك. عند وصولنا إلى المكان، أذكر أنه كان هناك ربوة زالت تماماً عند رحيلنا...

وأضاف قائلاً:

- كان الوضع أسوأ من الجحيم، أيها الشباب، وأسوأ من الجنون... تعتقد أنه انتهى، لكنه يعود من جديد... فالحرس يتدبرون أمرهم ليخلقوا لك على مقاسك وضعاً صعباً ومعقداً، إنهم يحرقونك على نار هادئة بانتظار أن تُفتح

مقالع أخرى. إنهم يروّحون عن أنفسهم بهذا المشهد حيث لا يوجد لديهم عمل آخر سوى التسلّي بتشويه وجوهنا... إنهم وحوش! لا مكان للرحمة في قلوبهم، وكلما اشتكيت، ازدادوا فخراً بالعذاب الذي يمارسونه عليك...

صمت قليلاً ليعيش ذكريات فشله، وبعد أن تمخّط تابع بصوت أجش ملؤه الحقد والتحدي:

- أما فيما يخص السجناء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، فالوضع أسوأ معهم. تحييهم بتحية الصباح فيردون عليك "وماذا بعد؟"... وكأنك تلفظت بكلام فاحش... كنتَ على حق "عاش" مئة بالمئة. إننا في الأرض المقفرة نحيا في المدينة الفاضلة. نحن هنا نحيا على حقيقتنا، غير مشوهين. سواء كنا أحراراً أو غير ذلك، فإننا متضامنون. نعمل مع، نعمل من دون، فالأمر سيان. يكفي هنا أن نستيقظ في الصباح في صميم الحياة. أما هناك، إن نمت أو سهرت، فإنك معرّض للقتل في أي لحظة...

لقد طرأ تغيير في كلمات جونيور. يحسبه المرء يفكر في العبارات قبل أن يستخدمها، وكأنه يعرف تماماً مغزى كلماته. لم يكن جونيور يفكر بكلماته قبل أن ينطقها إلا فيما ندر. وكانت عباراته مزيجاً من الاستعارات والك‍لام الدارج، وغالباً ما كان يَضِيع فيها... كان نيغوس أول مَن تساءل إذا كان هذا هو جونيور نفسه. أما الباشا الأشر المتسرّع، فكان غالباً ما يخطئ في تقدير الناس... وأدرك ديب بدوره، وهو الذي لا يهمل شيئاً، بل يرتاب من كل شيء، أن الموضوع لم يكن يتعلق فقط بالعبارات التي يستخدمها جونيور. لقد اكتشف أيضاً بعض الشذوذ، فاقترب أكثر ليتحقّق من الأمر، وغضّن جفنيه ومسح هذا الرجل المغرور بنفسه، كما يفعل جهاز المسح (السكانر Sca)، والذي كان يتعب رئتيه أمام جمهور مستمعيه. لا مجال للشك؛ إنه حقاً جونيور، غير أنه لم يعد كما كان. لقد تغيرت فيه أشياء كثيرة: نظرته لم تعد صافية، إنها شبه قذرة، ثم إنه فقد تلك السذاجة التي كانت تميزه في الماضي، وتحرك قلوب الآخرين عندما كان يأتي إلى القصر بحثاً عن طعام لذيذ...

لاحظ شباب الجسر العائم الواحد تلو الآخر تفاصيل لم يلحظها أحد غيرهم، وهم الذين اعتادوا ترصد أتفه الأخطاء: لقد ضعف جسد جونيور، أصبح هيكلاً عظمياً شاحباً تحت ملابسه المغضنة. وعكس وجهه علامات عذاب أليم، كانت

عيناه بلون اللبن، وأوشكت وجنتاه أن تخترقا بشرته. علت وجهه ندبة سوداء خلفتها ضربة قاسية، أما الجرح الذي علا جبهته، فإنه لم يندمل جيداً. ولم يكن كتفه الأيسر على نفس مستوى كتفه الأيمن. لقد تضاءل وجهه فبدت أذناه أكبر من حجميهما المعتاد. وبدا فمه المتشنج منحرفاً، لقد فقد عدداً لا بأس به من الأسنان.

لم يتجرأ نيغوس، كما لم يتجرأ الآخرون على إظهار أي ردّة فعل من هول ما اكتشفوا، فقد أحسوا بالإهانة والألم.

وتابع جونيور:

- هناك، لا تعرف مَن أنت، بل يصل بك الأمر أنك لا تدري ماذا سيحل بك بعد قليل، حتى إن صديقك في الزنزانة لا يطيقك. فهو عندما ينتهي من البكاء من سياط الحرس، يسعى للتشاجر معك بمعاملتك بقسوة إثر الضربات المتواصلة التي تلقاها... أما مطعم السجن، فكيف أصفه لكم؟ شريعة الغاب تسود فيه. يجب أن تعض جارك بكل ما أوتيت من قوة كي لا يسلبك نصيبك. علماً أن الطعام نتن، ويسبح ونيم الذباب في العصير، بينما بقايا الخبز كانت أشد قسوة من الحصى. تعتقد أن أحداً لن يرغب به ولكن سرعان ما تكتشف أنك كنت مخدوعاً، فهناك دوماً ذراع تمتد لتأخذ كل شيء، وتبصق في حسائك؛ وإذا أعربتَ عن استيائك فسيسكب الحساء على وجهك، وليس من مصلحتك أن تتعفف عن الطعام، إذ إنك ما إن تنتهي من التأوه حتى ترى جذور أسنانك مبعثرة على الأرض ...

كان "عاش" يُدخل رأسه في عنقه، شيئاً فشيئاً، تحت سيل من المواقف السيئة التي تعرّض لها الفتى الذي كان يرعاه. وكأن أحدهم كان يصوّب عليه ضربات قاضية متكررة. كان يشعر بالنظرات التي يرمقه بها جونيور من حين لآخر، والتي تتبدل بين الشفقة والاحتقار، فحاول أن يتشاغل عنها بالنظر إلى يديه، ولكنه لم ينجح في ذلك. بدأت ريح الفضيحة تعصف في قلب الصمت.

توقف جونيور ليستعيد أنفاسه، ثم استرسل قائلاً وقد تعبت شفتاه:

- إن السجن ليس قرية نائية، إنه الهذيان. هناك ، كلٌّ مسؤول عن ذاته، ولينجُ من يستطيع. لن تجد أحداً يمد لك يد العون عندما تحتاج إلى أي شيء... في الليلة الأولى، لم أستطع أن أغمض عينيّ، طلبت من بابيون الذي

لا ينام أبداً، أن يروي لي قصة، إذ إنه كان يشاركني الزنزانة قبل أن يقطعوا عنقه في المراحيض. كان به وشم على فمه، وكان رأسه محلوقاً كالحجر الذي يستعمل للصقل.. كنت أعتقد أنه يتقبلني بكل بساطة بما أن الآخرين لم يكونوا ليروقوا له. لم يصدق أذنيه في البداية، ثم سألني إذا كنت لا أسخر منه. فأجبته إن "عاش" كان يحكي لي القصص كل مساء قبل أن أنام. فراح بابيون في غيظ أسود، وسطحني كالعجينة الرقيقة وهو يصيح أنه ليس أمي العاهرة. لم أفهم شيئاً. ثم هل حصل أن حدثته عن أمي؟... ومع الزمن أيقنت أن السجناء لا يفكرون مثلنا، وأنهم مصنوعون من عجينة غير مألوفة، وأنهم يفهمون الأشياء بصورة معوجّة. إنهم على استعداد لأن يفقؤوا لك عينيك، لا لشيء سوى لكي لا يفقدوا يدهم. أقول لكم إنهم مغفلون. لا تشعر بالأمان معهم، ولا تستطيع أن تتوق-ع متى سيغضبون عليك.

ثم استدار فج-أة ناحية "عاش" وقال:

- أنت مثلاً لن تعيش طويلاً هناك. لأنهم هناك لا ينامون إلا بعين واحدة، وبالنسبة للأعور، يبقى الأمر غير مؤكد...

- وماذا فعلت لتخرج من السجن؟ سأل آينشتاين مذهولاً.

- لست أدري. لا أحد يطرح هذا النوع من الأسئلة هناك. أنت هنا وهذا يكفي. ستعتاد على ذلك. تعتقد أنك تخلصت من الأوقات الصعبة، ولكن الزمن يخبئ لك المفاج-آت. ك-أنك تسير ف-ي وادي الظلمات. كلما تقدمتَ بالسير، تورّطت؛ وكلما نهضتَ من جديد، بدا لك الأمر بعيداً عن التصديق، وقلتَ أنا ميتٌ ميت، هذه شياطين أخرى تستولي على جسدي. أقسم لكم أني أقول الحقيقة. تقول في قرارة نفسك إن-ي أعرف طاقتي، وأعرف حدودي جيداً، لا يمكن أن أكون مشيت كل هذه المسافة، ولا أزال على قيد الحياة. هذا جنون. وهكذا تعلمت أن باستطاعة المرء أن يذهب إلى ما بعد الموت، ويعود حياً. لقد عشت ذلك. هل تدرون ما هي العقوبة الإدارية المخصّصة للمتعقلين في الزنزانة التأديبية؟ حسناً إنها لا تشبه أبداً ما نتخيله، إذ إن ذلك يفوق التصور. أن تلامس القاع، فهذا له معنىً بالنسبة لسجين الزنزانة الانفرادية. أما بالنسبة لمَن لم ينتهِ به الأمر إلى الزنزانة التأديبية، فلا يمكن له أن يعرف معنى ملامسة القاع. أنت في أسفل السلم، وفجأة تبتلعك الأرض كما تبتلع

الماء القذر. تختفي من الوجود. فيشتد بك الألم لدرجة تفقدك الإحساس به. الدقائق تصبح أياماً، والأيام دهوراً. تبدأ بمشاهدة أشياء عجيبة، وفجأة تشاهد الجدار في السواد الحالك وقد أصبح له آذانٌ وعيونٌ. لقد تعرفتُ إلى الرب في الزنزانة الانفرادية التأديبية. كان قريباً جداً مني حتى إني أحسست بنفَسه على وجهي. شعر بالأسى لأجل .. وعندما جاؤوا ليأخذوني، كنت قد نسيت تماماً كيف أقف على قدميّ. كان عليهم أن يسحبوني. عندما أصبحت خارج الزنزانة الانفرادية، فاجأني ضوء مصباح، ودخل في عيوني مثل لهيب نافثة النار.

- لقد عدتَ من بعيد، أليس كذلك! قال بيبو مندهشاً.

- كـلا لم يكن المكان بعيداً إلى هذا الحد من الطرف الآخر للمدينة.

ثم استدار نحو الحضور، وهو يرتعش من شدة التأثر.

- أقسم لكم لم تكن تمضي فترة استراحة إلا وأذْكركم كلكم فرداً فرداً: الباشا، ماما، نيغوس، اللوفييه، الإخوة زوج، علماً أني لم أفهم أبداً ما الفائدة من وجودهم، وديب مع أنه كاذب ومزعج. وفي تلك اللحظات كنت أذكر كلمات "عاش" المقدسة، وكنت أدرك بوضوح أن لا شيء أجمل من أرضنا المقفرة، وأن أي جنة لا تساوي الأمسيات التي كنا نقضيها سوية حول النار، وقد رحنا في الثمالة كالبلهاء، وكنا نحتقر العالم مثلما نحتقر السعفة.

- يا للمسكين! صاح إيتسيتيرا مرعوباً. أمضيت كل هذا الوقت في السجن!

- لقد أخلوا سبيلي منذ أيام قلائل. بعض الشرطة احتجزوني ثم أطلقوني بسبب يدي...

انحنى كل الحضور على يد الناج-ي:

- ماذا بها يدك جونيور؟

ألقى جونيور نظرة حزينة إلى "عاش" قبل أن يشمِّر كُمَّ سترته الأيمن الذي كانوا يعتقدون أنه أطول من الأيسر. في الحقيقة كان ذراع جونيور هو القصير. لقد بترت يده. كانت جدعة مشوهة وبشعة في نهاية معصمه.

تلقى الحضور الطعنة كما يتلقوّن اللكمة الصاعدة في عرض الوجه من شاحنة آلية كبيرة، من دون تأثّر.

- لقد تألّمتُ بعمق يا "عاش"، وتألمتُ أكثر عندما أيقنتُ أني لم أعد قادراً

أن أضرب على الطبل عندما تعزف على البانجو. ذات يوم كنا نفجّر نفقاً، أصابني حجر كبير في معصمي. قال لي الطبيب إنها لمعجزة أن ذراعي كله لم يبتر.

رجع بليس إلى الوراء بحنق وأخذ يصيح:

- سبق لي أن حذّرتك يا جونيور، قلت لك إن المدينة هي بلد عدو لنا ولكنك لم تصغِ إليّ.

- ولكنني لم أكن في المدينة عندما أصبت.

نهض نيغوس بدوره، وقد شحب لونه وعلامات الاستنكار تبدو على وجهه. رمق "عاش" بنظرة ازدراء طويلة قبل أن يأخذ قبعته ليرميها تحت قدميه بفظاظة، وقد زال الضغط عن أصبعه.

- إنك تستحق الإعدام بالرصاص حتى دون أن تخضع للمحكمة العرفية أيها الأعور... تستحق أن تصلب على العمود وأن تذبح كما الدابة الحقيرة، من دون تصويب. فِعْلتك هذه أخطر من الخيانة العظمى. لقد أرسلتَ هذا الأبله المسكين إلى الحرب.

- جونيور لا ينتمي إلى أولئك الجند الذين نذروا أنفسهم للموت، أضاف بليس مغتاظاً. إنه ليس بأهمية بطل ولا يتمتع بباع شهيد. إنه أبله ومغفل، لا عقل له ولا ملَك يحرسه، إنه مجرد أرعن مثير للشفقة، ولم يكن يملك أي فرصة للخلاص تماماً كالجرذ الذي وقع في وكر الأفاعي.

بدا "عاش" منهكاً من الحزن والندم.

غاص في أعماق نفسه ليستمدّ بعضاً من القوة والشجاعة، ليقول في محاولة يائسة منه لإنقاذ ماء الوجه:

- لم تكن تصاحبني بالطبل بيديك يا جونيور، إنما بفمك.

استدار كل من بليس، ونيغوس، وميموزا وكل مَن كان على الجسر العائم، وكل مَن كان على المنحدرات، وجامعو الخرق البالية، استدار الجميع ككتلة واحدة باتجاه الموسيقار وبريق الحقد يلمع في أعينهم.

***

غداً عندما يصحو جونيور من نومه، يكون "عاش" قد رحل. دون أن يقول أي كلمة. دون أن يحْدث أي ضجة. سيقوم فقط بكسر آلة البانجو على الصخرة قبل أن يغامر بنفسه إلى المدينة وسط المخاطر. لن تعود الأوضاع إلى سابق عهدها. بالتأكيد لن تتوقف أسراب الطيور الداجنة من التردّد على مستودع القُمامة. وستضاعف أمواج البحر من تقلبها المفاجئ، لكن طيور النورس لن تكون ملهمة كسابق عهدها وهي تمتطي الموج. وعندما ينسحب كل شيء في وقت الجرز لن يبذل الشاطئ أي جهد لثنيها عن عزمها، إذ إنه سيكون بدوره قد جُرِّد من كل شيء... إن رحيل "عاش" سيجعل الشاطئ يبدو وكأنه مبتور.

لن ينسى جونيور أبداً هذا الأعور، بلحيته الكثيفة وآلة البانجو القديمة قِدم العالم. سيحتفظ بالذكريات الجميلة، ذكرى ذلك الموسيقار الذي لا يبدو عمره جلياً للعيان، والذي لا يلجأ إلى الدعابة، والذي كان يُجدّ في تمجيد البحر، وهو يشكو من المدينة التي أضنته، والذي كان يتناهى إلى أسماع جونيور صوت تراتيله التي يردّدها الصدى من المنحدر إلى الجسر العائم، يُخيَّل إليه ترانيم تطلب المغفرة.

ومن السلم الصغير الذي يستخدمه كنافذة بارزة، سيرقب جونيور المدينة دون كللٍ ولا ملل. سيذكر شوارعها التي تعج بالناس الغرباء فيما بينهم؛ ومنازلها الشاهقة التي تسبّب الدوار، وساحاتها التي تفوق بمساحتها وطناً بأكمله.

سيذكر أولئك الرجال الأقوياء المسلحين بالهراوات، الذين تعلو قسمات وجوههم الفظاظة، والذين كانوا يحوّلون الرجال إلى مجرد حصيرة يمشون عليها حتى يجعلوهم يندمون على مجيئهم إلى هذا العالم.

وهناك خلف الأفق ستستحوذ عليه خيالاتٌ لأشكال مربعة قاتمة، صارمة لبلد الحجارة الغليظة، والهراوات التي لا تشبه من قريب أو من بعيد المدينة أو الأرض المقفرة؛ بلد أسوأ من الجحيم، بل أسوأ من الجنون.

جونيور لن يفكر أبداً بتغيير حياته بعد الآن.

***

1 تروي الأسطورة أن سيزيف هو ملك كورنثيا، يعرف بأنه قاطع طريق، حكم عليه بعد موته أن يدحرج صخرة كبيرة إلى قمة الجبل، حيث تسقط مجدداً، فيعيد دحرجتها إلى أعلى الجبل، كناية عن العمل المضني والمتواصل. (المترجمة)

2 عضو في طائفة دينية أميركية أنشأها جوزيف سميث عام 1830، وقد أباحت تعدد الزوجات فترة ثم حظرته. (المترجمة)